”رأيت مدينتي تحتضر“

أصوات من خطوط المواجهة في نزاعات داخل المدن في العراق، وسورية، واليمن

ICRC

مسألة مركزية

يستعرض هذا التقرير الخاص الذي أعدته اللجنة الدولية للصليب الأحمر (اللجنة الدولية) الخسائر البشرية الفادحة من جراء حروب المدن الحديثة في ثلاثة بلدان في منطقة الشرق الأوسط.

S. Tarabishi/ICRC

لقد رأيت مدينتي تحتضر، وشاهدت أهلي يموتون، ورأيتني وقد أصابني الانهيار. لا أعلم إذا ما كنت سأعيش حياتي بصورة طبيعية بعد الآن، لكنني أتمنى ذلك.

- «سامي»، 29 عامًا، فرّ من حلب إلى دمشق، ومنها إلى بيروت

أخبرني أحد القادة العسكريين أن القتال يتخذ في بعض الأحيان منحى في غاية السوء، إذ يكون هو في المطبخ يطلق النار على عدوه، الذي يكون في غرفة المعيشة يرد عليه بإطلاق النار، في حين يوجد مدنيون- أسر- في الطابق العلوي من المنزل.

- جوشوا بيكر، مخرج ومنتج فيلم معركة الموصل، وهو فيلم وثائقي أنتجته شبكة تليفزيون بي. بي. إس (PBS) وصحيفة الغارديان

رأينا أناسًا يأكلون من القمامة لأنهم لا يملكون سبل الحصول على الغذاء. ورأينا نساءً يقطفن أوراق الأشجار ويغلينها لكي يُقدّمن لأطفالهنّ بعض الحساء الساخن.

- نانسي حمد، رئيسة البعثة الفرعية للجنة الدولية في تعز، اليمن

A. Liohn/ICRC

عندما اندلع العنف، فقدت وظيفتي، مثلي مثل الآخرين، فقدنا كل شيء. والآن أنا أضطر إلى اقتراض المال لشراء الحليب لأطفالي.

- أب عراقي لعشرة أبناء، نزحوا من بلدة سنجار في عام 2014، وظلوا يرتحلون من مكان إلى آخر منذ ذلك الحين.

كانت أصوات القنابل، وقذائف الهاون، والرصاص تهدر فوق رؤوسنا. لاذ الجميع في الحي بالفرار. كان الأمر مروعًا.

- أحد سكان الموصل يصف هروبه وعائلته من حيهم.

كنت أتناول الإفطار. وبينما كنت آخذ رشفة من الشاي، وقع انفجار دون سابق إنذار. فجأة، تطايرت الشظايا لتصيب ذراعي وساقي.

- يوسف، أحد سكان الموصل

تقديم

عادت الحرب إلى المدن مجددًا. يظهر هذا التقرير الجديد الذي أعدته اللجنة الدولية بوضوح ما نشهده من تغير هائل في تاريخ النزاعات المسلحة الذي يشهد بدوره بلدات ومدن ترزح تحت وطأة أنماط متأصلة من حروب المدن تستمر سنوات في كل مرة. يدور القتال بين القوات الحكومية والمجموعات المسلحة من غير الدول من شارع إلى آخر في معارك تمزج بين استخدام القصف الجوي، وقذائف المدفعية، والأسلحة الذكية، وهجمات المشاة، والتفجيرات الانتحارية، والسيارات المفخخة، والعبوات الناسفة المُصنّعة يدويًا. وفي خضم هذا كله، يوجد المدنيون.

منذ العصور القديمة، يحمل اقتحام مدينة ما ونهبها في طياته ترويعًا قاتلًا لسكانها. وسجل التاريخ أنه إذا رفض قائد القوة الدفاعية شروط الاستسلام، كان السكان المدنيون يتعرضون لأعمال النهب، والاغتصاب، والقتل، والتشويه، والاستعباد. وكان الكثير منهم يفضل الانتحار.

على أية حال، بدا خلال معظم القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أن الشكل القديم للحصار والقتال في المدن أصبح أمرًا من الماضي. إذ فضل القادة العسكريون ممارسة «فنون الحرب» في الأماكن المفتوحة. إذ كانوا يخشون فرار الجنود، وعدم انضباطهم، ووقوعهم في أسر الخمر إذا ما قاتلوا داخل المدن. فضلًا عن أن التدريب والتكتيكات المتبعة آنذاك، التي تقتضي عدم منح الضباط من الرتب الدنيا صلاحية تكييف الخطة تبعًا للأحداث، كلها مؤشرات إلى أنهم لم يكونوا مجهزين بأي حال من الأحوال تجهيزًا ملائمًا لخوض حروب المدن.

وفي أوائل القرن التاسع عشر، كان معظم المجندين ينتمون إلى مجتمعات ريفية، وبالكاد سبق لهم رؤية مدينة كبيرة. وبحلول عام 1914، وفرت الزيادة السريعة في عدد سكان عواصم أوروبا، بسبب الهجرة الداخلية في أواخر القرن التاسع عشر، عددًا كبيرًا من «الأبناء الذين يمكن التضحية بهم»، وهي العبارة التي استخدمها الأكاديمي الأميركي إدوارد لوتواك. ومع ذلك، كان هناك جانب مثير للاهتمام في الحرب العالمية الأولى، وهو أنها لم تشهد إلا القليل من القتال في المدن. وكان أول مثال حديث كبير هو وقائع الاغتصاب التي حدثت في مذبحة نانجنغ في عام 1937، التي ظهرت فيها مشاهد من القسوة التي لا يمكن وصفها. فقد لجأ الجيش الإمبراطوري الياباني إلى سياسة الترويع بهذا الأسلوب الوحشي لتعويض ضعفه العددي مقارنة بعدوه، غير أن المقاومة الصينية لم تنهار.

وفي بداية الحرب العالمية الثانية، في عامي 1939 و1940، تعرضت مدن مثل وارسو وروتردام للقصف الذي غالبًا ما اتسم بالوحشية. ولكن، في ساحة الحرب في أوروبا الغربية، أُعلن عن فتح المدن والتخلي عنها للعدو. وفي 11 حزيران/ يونيو 1940، حث ونستون تشرشل قادة الأركان العامة الفرنسيين- في اجتماعهم في قلعة دو موغيه- على الدفاع عن باريس باتباع أسلوب القتال من منزل إلى منزل. وتلقى الجنرال ويغان والمارشال بيتان- الذي سبق أن كان سفيرًا لفرنسا لدى إسبانيا ويعلم ضراوة قتال الشوارع- تلك الفكرة بانزعاج شديد.

وفي الحرب العالمية الثانية، التي اشتهرت بأسلوب الحرب الخاطفة الذي ابتدعته القوات المسلحة الموحدة لألمانيا (فيرماخت)، تراجعت المناورات الحربية للقوات العسكرية في نهاية المطاف إلى القتال داخل المدن – في سيباستوبول، وفورونيج، ثم ستالينغراد - على الرغم من أن هتلر كان يريد إبقاء جيوشه خارج المدن. وفي معركة ستالينغراد، حيث استطاع الجيش الأحمر تغيير مجرى الحرب، تجلت أبشع صور التجرد من الرحمة. ومن بين نحو 10 آلاف مدني كتبت لهم النجاة من القتال وسط ركام المباني رغم جميع الصعاب، كان هناك ألف يتيم. وقد ذكر أحد عمال الإغاثة بعد انتهاء المعركة أن هؤلاء الناجين منهم من اكتسب صفات وحشية ومنهم من أصيب باضطرابات ذهنية من هول ما عايشوه.

ومع تحول مجرى الحرب ضد هتلر، رفض التخلي عن المدن لأسباب تتعلق بالهيبة. وعندما وصل الجيش الأحمر وحلفاؤه الغربيون إلى حدود الرايخ، أصدر هتلر أوامره بأن تتحول كل مدينة إلى حصن- لا سيما مدن كونيغسبرغ، وبريسلاو، وبرلين. ولاقى المدنيون المحاصرون في تلك المدن عند اقتحام كل واحدة منها مصيرًا أعاد إلى الأذهان، في بعض الأحيان، الفظاعات التي كانت ترتكب في العصور المظلمة.

كانت معركة برلين آخر المعارك الكبرى التي تُشن في المدن في أوروبا بين عدد هائل من القوات. وفي عام 1945، سحق الألمان واليابانيون تمامًا بعد حرب طويلة. وقد استحالت مدنهم إلى ركامًا على نحو لم يمكن لأحد أن يتخيله من جراء القصف الجوي وعمليات القوات البرية التابعة للحلفاء. وتحول المدنيون والجنود على حد سواء إلى مسوخ بشرية بفعل سنوات عدة من الإجهاد والجوع وصدمات المعارك. وكان هناك نحو 12 مليون طفل يجولون في أرجاء أوروبا غير مصحوبين بذويهم من بين عدد أكبر من النازحين. وقد عانى الملايين من سكان المدن في أوروبا وآسيا والاتحاد السوفيتي الجوع والفقر والتشرد والمرض وفقد الأحبة وتشتت الشمل العائلي.

واليوم، يجد المدنيون في المدن أنفسهم عالقين بين فكي الحرب مرة أخرى- فهم إما محاصرون أو جرحى أو جوعى أو فقراء أو محتجزون كرهائن، أو مستخدمون كدروع بشرية، وكثيرًا ما يُحال بينهم وبين الفرار. كما تضررت الخدمات الأساسية في المدن مثل المياه والرعاية الصحية والكهرباء والمدارس، وتدهورت حالتها، بل تعرضت أحيانًا لهجمات متعمدة. وهكذا، عادت استراتيجية الحصار القديمة. ويتخذ النزاع الطويل الأمد في المدن شكلًا جديدًا يجمع بين استخدام الأنفاق والشراك الخداعية المتفجرة والقناصة والطائرات بدون طيار والحرب الرقمية، وهو الشكل الذي يبدو أنه سيصبح الوضع الطبيعي الجديد في السنوات المقبلة.

إن حروب المدن الجديدة هذه يمكن ألا تحسم الأمور لسنوات في وقت تختبئ فيه المجموعات المسلحة اليوم تحت غطاء المدينة بدلًا من الأدغال، وتصبح حرب العصابات حرب مدن بشكل كبير. ويراوغ النصر كل طرف، ويغدو النزاع في المدن جزءًا من حياة ملايين البشر لا يمكن الخلاص منه.

لقد وصلنا إلى نقطة تحول أخرى في تاريخ الحرب- وصفتها جيدًا أصوات المدنيين الواردة في هذا التقرير. وكما يظهر من القتال الدائر في العراق وسورية واليمن وليبيا، فإن ساحات القتال الرئيسية في المستقبل لن تكون في أراضٍ مفتوحة، بل ستكون داخل البلدات والمدن.

- السير أنتوني بيفور
المؤرخ العسكري، ومؤلف كتاب
«ستالينغراد وبرلين: السقوط 1945»

قائمة المحتويات

1

إنقاذ مدننا: نداء عاجل

مقدمة للنزاعات الحديثة التي تدور في المدن في العراق، وسورية، واليمن، بقلم روبير ماردیني، المدير الإقليمي باللجنة الدولية للصليب الأحمر لمنطقة الشرق الأدنى والأوسط.

صفحة 11

2

عشر توصيات

للتحرك العاجل من أجل منع المعاناة التي تسببها الحروب في المناطق الحضرية والتخفيف من آثارها.

صفحة 18-19

3

"ابني اختنق حتى الموت":

قصة حلب، ثاني أكبر مدن سورية.

صفحة 20

قصة ياسر

"انهار المبنى. ولم يكن لديه فرصة للنجاة".

صفحة 21

© اللجنة الدولية للصليب الأحمر 2017. الحدود، والأسماء، والمسميات المستخدمة في هذا التقرير لا تقتضي ضمنًا موافقة رسمية، ولا تعبر عن رأي سياسي من جانب اللجنة الدولية، ولا تشكل مساسا بأية مطالبات بالسيادة على الأراضي المذكورة.

4

"ذكريات عن مدينة كانت في يوم من الأيام نابضة بالحياة"
قصة تعز، العاصمة الثقافية السابقة لليمن.
صفحة 26

قصة حنان:
"في ذلك اليوم، انتهت حياتي".
صفحة 29

5

"أينما تولي وجهك، هناك من يحاول قتلك"
قصة الموصل، ثاني أكبر مدن العراق.
صفحة 30

قصة محمد:
"استضافنا الناس على الرغم من صعوبة ظروفهم".
صفحة 36

6

الآثار المتفاقمة لحروب المدن
"العيش تحت الأرض"
الانقطاع عن العالم الخارجي والتشبث بالحياة.
صفحة 40

قصة عمار ورنيم
الهروب من مدينة تحولت إلى ساحة حرب والعودة إليها.
صفحة 44

"لو بقينا، لكنّا الآن في عداد الموتى"
الفرار من المدن التي تحولت إلى ساحة حرب، أو إليها، أو داخلها. القصة المنسية للنازحين داخليًا في المناطق الحضرية.
صفحة 46

"هدفنا: ضمان استمرار حياد المياه"
الحروب في المدن وحولها تعطل شبكة الخدمات التي يحتاجها سكان المناطق الحضرية من أجل البقاء على قيد الحياة.
صفحة 50

موجات الصدمة
الآثار المدمرة لاستخدام الأسلحة المتفجرة في المناطق الحضرية.
صفحة 54

الأسلحة الكيميائية
على الرغم من الحظر المطلق للأسلحة الكيميائية، تظل المزاعم المتعلقة باستخدامها متكررة بشكل كبير.
صفحة 56

إرث قاتل
الأسلحة غير المنفجرة تواصل حصد الأرواح حتى بعد انتهاء القتال.
صفحة 58

7

"رأيتني وقد أصابني الانهيار"
بخلاف الإصابات الجسدية، يخلّف النزاع الممتد في المدن ندوبًا نفسية حقيقية ودائمة.
صفحة 60

8

"لن أنسى، لا يمكنني ذلك أبدًا. ولكني سأحاول أن أسامح"
تقدم الحرب الأهلية اللبنانية التي دارت رحاها في المدن بصفة أساسية العديد من الدروس المستفادة بشأن تكلفة النزاعات في المناطق الحضرية المكتظة بالسكان والتي تتسم بالتنوع الكبير. ثمة درس أساسي هو أن إعادة إحياء المجتمعات الحضرية يتطلب أكثر من مجرد إعادة بناء المباني.
صفحة 64

"لم لا أقاتل لحماية نفسي وأسرتي؟"
مقاتل سابق يتحدث عن تجربته مع الحرب والمصالحة.
صفحة 71

طفلان يلعبان في سيارة اخترقها الرصاص في تعز، اليمن. كانون الأول/ ديسمبر 2016.

مقـدمة

إنقـاذ مـدننا: نـداء عاجـل

روبير ماردیني، المدير الإقليمي باللجنة الدولية للصليب الأحمر لمنطقة الشرق الأدنى والأوسط

أم لطفل صغير تفقد زوجها برصاصة قنَّاص بينما كان ذاهبًا لشراء الطعام لأسرته.

وأب لأربعة أطفال يرى زوجته وطفله يموتان عندما سقط صاروخ في فناء منزلهم. وقائد عسكري يصف كيف اضطر رجاله إلى القتال من منزل إلى منزل في حين كانت الأسر تختبئ داخلها.

هذه ليست سوى بعض القصص التي توصّف حروب المدن اليوم. وهي تشكل جوهر هذا التقرير الخاص الذي أعدته اللجنة الدولية من أجل استكشاف الأثر التراكمي والطويل الأجل للنزاعات في مدن في منطقة الشرق الأوسط من منظور أولئك الذين يعايشونها.

إن الأشخاص العاديين الذين يكابدون مصاعب غير عادية- منهم مساعد طبيب الأسنان، والمدرب الرياضي، والنجار، والطالب الذي صار مقاتلًا وغيرهم- يساعدوننا على فهم تحدٍ بالغ الأهمية في عصرنا الحالي، ألا وهو اكتساب النزاعات المسلحة طابعًا متمدنًا. فكلماتهم، جنبًا إلى جنب مع ما يطرحه ضباط الجيش، ومهندسو المياه، وعمال الإغاثة، ومندوبو اللجنة الدولية، وعلماء السياسة، والمؤرخون من رؤى تعطينا فكرة عما يعانيه الناس من أهوال كل يوم من جراء حروب المدن.

وللمدن التي نشاهدها في نشرات الأخبار- حلب وحمص والموصل والفلوجة والرمادي وتعز- قصص مهمة تستحق أن تروى. فقد ظلت مدينة حلب السورية مركـزًا لتلقي العلم، والموسيقى، والتجارة لما يربو على ألف عام، وقلب اقتصاد البلاد قبل اندلاع الحرب. أما اليوم، فقد تعرضت معظم أجزاء وسط المدينة التاريخي للدمار، وتراجع عدد سكانها، وأصبحت حياتها الفكرية والثقافية والاقتصادية أثرًا بعد عين. ويعكس عنوان هذا التقرير- "رأيت مدينتي تحتضر"- وصف موسيقيّ شاب للتحول الذي طرأ على مسقط رأسه الحبيب. فقد فر من المدينة بسبب القصف المستمر وتكرار تعرضه للاعتقال والانتهاكات على أيدي المقاتلين من جميع الأطراف.

أما مدينة الموصل العراقية فقد اشتُهرت يومًا بما كان يسودها من تسامح وامتزاج بين الأديان والثقافات. وكانت تعز، في جنوب غرب اليمن، مركزًا للصناعة، وإنتاج البن، ومعينًا للعلم قبل الحصار الذي فرض عليها لمدة 15 شهرًا.[1] وقد عصف القتال- أو لا يزال يعصف- بحياة سكان هذه المدن، ذلك القتال الذي غالبًا ما يدور في الشوارع أمام منازلهم وأعمالهم.

ولدى سكان العديد من المدن الأخرى في العراق، وسورية، واليمن قصص مماثلة تستحق أن تروى.

في الرمادي، العراق، تعرض 80 في المائة من المباني للدمار بنهاية عام 2015.

مستوى جديد من المعاناة في المدن

وقع نحو نصف الخسائر البشرية الناجمة عن الحروب على مستوى العالم ما بين عامي 2010 و2015 في العراق، وسورية، واليمن،[2] حيث شهدت البلدات والمدن قتالًا لا هوادة فيه. وبينما لا تُعد حروب المدن والمعاناة التي تسببها أمرًا جديدًا، فإن شكل القتال الذي نشهده في المدن اليوم أصبح شائعًا ومدمرًا إلى حد بعيد. فهو يؤدي إلى مآسٍ عميقة مع احتمال التسبب في دورات من العنفً. وأوضحت بعض التقديرات أن نسب الخسائر البشرية بين المدنيين مرتفعة للغاية، إذ تمثل 92 في المائة من حالات الوفاة والإصابة بسبب استخدام أسلحة متفجرة في مناطق مأهولة بالسكان، وذلك مقارنة بنسبة 34 في المائة عندما تستخدم هذه الأسلحة في مناطق أخرى.[3]

إذن، ما هو سبب ارتفاع التكلفة البشرية إلى هذا الحد؟ يتمثل أحد الأسباب الرئيسية لذلك في عدم احترام القانون الدولي الإنساني- المعروف أيضًا باسم قانون النزاعات المسلحة- بشكل عام. فهذه المجموعة من القوانين تحمي الأشخاص الذين لا يشاركون في الأعمال القتالية أو الذين كفوا عن المشاركة فيها، وتقيد وسائل الحرب وأساليبها. وهي تسعى، في جوهرها، إلى الحد من آثار النزاعات المسلحة والحفاظ على قدر من الإنسانية في الحرب. بيد أن القانون يُنتهَك. ويصبح المدنيون والمباني المدنية، مثل المستشفيات والمدارس، محلًا للاستهداف. ويصبح الأشخاص العاديون تحت الحصار. ولا تولى عناية مستمرة لحماية السكان المدنيين. ومن ثم تصبح العواقب وخيمة.

وثمة سبب آخر وهو اختيار الأسلحة وكيفية استخدامها في المناطق المكتظة بالسكان. فبينما كان القصف الجوي الكاسح الواسع النطاق الذي استخدم في بعض النزاعات في القرن العشرين أقل تواترًا في القرن الحادي والعشرين، لا يزال القصف الجوي والقصف بالمدفعية الثقيلة للمناطق المدنية من السمات الأساسية للحرب الحديثة.

بالإضافة إلى ذلك، ولأسباب عديدة، هناك إخفاق في التوصل إلى حلول سياسية للنزاعات الحديثة التي تدور رحاها في المدن، ما يعني سقوط مزيد من الناس ضحايا للعنف المتأصل مرارًا وتكرارًا، وعلى مدى سنوات عديدة.

ومما يميز النزاعات التي تدور في المدن في منطقة الشرق الأوسط في وقتنا الحاضر أيضًا عدد القوات المسلحة والمجموعات المسلحة المختلفة المنخرطة فيها، والدعم الذي تتلقاه من مجموعة كبيرة من الدول. ويعقد هذا الأمر الأوضاع أمام جهود بناء السلام وتقديم المساعدة للسكان.

وفي الوقت نفسه، عاد أحد أشكال الحرب القديمة- ألا وهو الحصار- إلى صدارة المشهد. فاليوم، تلجأ القوات المسلحة والمجموعات المسلحة، تجنبًا للمخاطرة بحياتها بالقتال في مناطق مكتظة بالسكان، إلى أسلوب فرض الحصار. وتضع الأطراف التي تتعرض للحصار والأطراف التي تفرض الحصار المدنيين في خطر- ما يعرض حياتهم ورفاههم وكرامتهم للخطر. ويعاني المدنيون حرمانًا شديدًا، ويتعرض بعضهم لحصار أطول أمدًا من حصار لينينغراد أو سراييفو. وفي ضوء ذلك، فإن الحصار على النحو الذي يُمارَس به في الشرق الأوسط اليوم غير مقبول وغير قانوني في أغلب الأحيان.

وأخيرًا، يعزى ارتفاع التكلفة البشرية إلى أن المصابين أو المرضى لا يتسنى لهم في أغلب الأحيان الحصول على الرعاية الصحية التي يحتاجونها. فقد تعرضت المستشفيات للهجوم، ويفتقر الكثير منها إلى الموظفين، والمستلزمات الطبية، والأدوية التي تحتاجها لمجرد أداء وظيفتها بشكل مناسب، ناهيك عن تلبية الاحتياجات الهائلة للرعاية الصحية.

"ما يزال يتراءى لي مشهد حفيدي وهو تحت الأنقاض. تمكنا من إخراجه. وكان على قيد الحياة. ولكن بسبب عدم وجود عيادات أو مستشفيات قريبة، مات بعد ساعة".

يقف عبد الرحمن بجوار الأنقاض التي مات تحتها أربعة من أفراد أسرته في أوائل كانون الأول/ ديسمبر 2016. كان عبد الرحمن يرعى 260 من كبار السن والبالغين المستضعفين في شرقي حلب عندما اشتدت حدة القتال وأحاطت بهم خطوط المواجهة. مات أقاربه قبل يومين من تمكن الهلال الأحمر العربي السوري واللجنة الدولية من الوصول إلى المنطقة وإجلاء المرضى، وكبار السن، وغيرهم من المدنيين.

S. Tarabishi/ICRC

النزوح من المدن

لا عجب إذن أن يفر ملايين الناس من مدنهم. وبحلول نهاية عام 2015، قُدر عدد النازحين بسبب النزاعات أو التعرض للاضطهاد بنحو 65 مليون شخص.[4] ولا تزال الأغلبية داخل حدود بلدانها، حيث تبلغ الحاجة إلى المساعدات الإنسانية ذروتها. وتشير التقديرات الأخيرة إلى أن ما يقرب من ربع عدد هؤلاء النازحين يُعزى إلى النزاعات الدائرة حاليًا في سورية، والعراق، واليمن،[5] في حين يُعزى سدس عدد النازحين إلى الحرب في سورية وحدها. ويعيش ما يربو على 6 ملايين سوري مع أقاربهم، أو في مآوٍ مرتجلة، أو في مجتمعات مضيفة داخل سوريةً، في حين غادر أكثر من 5 ملايين شخص البلاد.[6] وبالمثل، لا يزال أكثر من 8 في المائة من اليمنيين[7] والعراقيين[8] نازحين داخل بلدانهم.

A. Qusay/ICRC

الفارون من القتال في الموصل يعبرون قرية كوكجلي، وهي قرية كردية تقع على الطريق إلى الخازر، وهو مخيم للنازحين. تشرين الثاني/ نوفمبر 2016.

الأثر غير المرئي

إن الآثار المدمرة للهجمات في البيئات الحضرية هي أحد الأسباب التي تفسر عدم وجود أي خيار أمام كثير من الناس سوى ترك منازلهم ومغادرة مدنهم. ففي حالة تعرض أحد خطوط المياه أو الصرف الصحي لأضرار من جراء انفجار قنبلة، ربما لا يتاح لآلاف الناس إمكانية الحصول على المياه النظيفة، وهو الأمر الذي يؤدي بدوره إلى حدوث مشكلات في الصرف الصحي وخطر أكبر بكثير يتمثل في انتشار الأمراض المعدية. وإذا ما تعرض مستشفى للقصف، فإن الأثر يتجاوز بكثير الوفيات المأساوية للعاملين في مجال الرعاية الصحية، والمرضى، وتدمير مرفق الرعاية الصحية. إذ بمرور الوقت، قد تموت آلاف أخرى من الناس بسبب أمراض وحالات عدوى يسهل علاجها، وذلك لعدم توفر مرافق الرعاية الصحية والعاملين بها لتقديم المساعدة لهم.

وفي الوقت نفسه، يجبر القتال والقصف الذي لا هوادة فيه ليلًا ونهارًا الناس على العيش في حالة دائمة من الخوف والصدمة والحزن. ويمكن أن يؤدي هذا الأمر إلى تعرض هؤلاء الناس إلى اضطرابات ناجمة عن الصدمات العصبية تجعل إعادة بناء حياتهم، أو استمرارهم في وظائفهم، أو ابتعادهم عن دورات العنف أمرًا بالغ الصعوبة.

ثم إن هناك مهمة إعادة الإعمار، تلك المهمة الطويلة الأجل التي تتسم بالتعقيد ليس فقط نتيجة الدمار الكامل الذي لحق بالبنية التحتية، وإنما كذلك بسبب وجود ملايين القذائف التي لم تنفجر وغيرها من الذخائر المختفية تحت الأنقاض.

وربما لا يمكن حتى قياس أكبر تكاليف حروب المدن. فهناك أطفال حرموا التعليم وممارسة طفولتهم، وأجيال كاملة بلا أمل في المستقبل، ومجتمعات محلية فتتتها مشاعر الصدمة وعدم الثقة والكراهية، وعمالة ماهرة هجرت بلدانها، وشباب كُثر طالتهم دائرة العنف.

هذه هي الحقائق التي يفرضها النزاع المسلح في المناطق الحضرية، والأسباب التي تدفع كثير من الناس إلى الفرار منها.

مشهد الدمار بعد تعرض مستشفى حلب الوطني لإطلاق النار. كانون الثاني/ يناير 2017.

صنعاء، اليمن. أصيب هذا الصبي بجروح، ويعاني كسورًا في عظام الوجه من جراء القتال في فج عطان.
نيسان/ أبريل 2015.

"هناك الكثير الذي قد يخسره المرء، والكثير الذي يمكن أن يكسبه. ولكن يجب علينا أن نعمل الآن، بكل عزم وإنسانية، من أجل أن يأتي يوم يمكن فيه لأناس مثل ذلك الموسيقي الشاب من حلب أن يقول: رأيت مدينتي تولد من جديد".

تكلفة باهظة

ما الذي تخبرنا به قصص أولئك الذين يعيشون تحت وطأة حروب المدن؟ إنها تخبرنا أن التكلفة البشرية الناجمة عن هذه الحروب باهظة. ويجب على كل من يشارك في هذه النزاعات المروعة الممتدة، سواءً سياسيًا أو عسكريًا، أن يقيّموا جميع التكاليف المحتملة- سواءً على المدى القصير أو الطويل- وأن يتخذوا إجراءات فورية لمنع حدوثها أو الحد منها.

أولًا وقبل كل شيء، يجب عليهم أن يبذلوا مزيدًا من الجهد لإيجاد حلول سياسية لمنازعاتهم. علاوة على ذلك، يتعين على الأطراف المتحاربة أن تدرك الأثر الكامل للقتال على الأشخاص الذين يأملون في نهاية المطاف أن يحكموهم. وإلا، فما الذي سيبقى لهذه الأطراف لممارسة سيطرتها عليه بعد أن يفقد الناس الكثير ويعانوا أشد المعاناة، وبعد أن تتعرض الخدمات التي تضمن لهم البقاء على قيد الحياة لأضرار شديدة أو تستحيل ركامًا؟ وهل سيكون باستطاعة المنتصرين الحفاظ على السلام إذا شعر الناس أنهم لم يحترموا القانون ولا أبسط مبادئ الإنسانية تجاه المواطنين المحليين؟

لقد ساعد الدعم الخارجي على انتشار عدد لا يحصى من المجموعات المسلحة، ما أدى إلى تفاقم آثار النزاع، وجعل التسويات السلمية أمرًا عصيًا على التحقق. ويجب على الدول التي تدعم أطرافًا في النزاع المسلح- سواءً أكانت قوات حكومية أو مجموعات مسلحة من غير الدول- أن تمارس نفوذها لتحقيق كل ما فيه مصلحة ضحايا النزاع المسلح. ويتعين عليها ألا تشجع على انتهاك القانون الدولي الإنساني وألا تساعد على ذلك، وعليها أيضًا أن تبذل كل ما في وسعها لضمان احترامه.

ومن ثم، يجب أيضًا استخلاص الدروس من الماضي، واتخاذ خطوات سريعة لإعادة بناء المجتمعات الحضرية- على النحو الذي يضمن عدم توقف الحصول على التعليم وتقديم الدعم للنازحين- والمشاركة في الجهود الرامية إلى تحقيق المصالحة الشاملة. وهذا ليس سوى القليل من النداءات من أجل العمل التي أوردناها في توصيات هذا التقرير- وذلك استنادًا إلى ما رواه الأشخاص الذين أجرت اللجنة الدولية مقابلات معهم. انظر صفحة 18-19.

وباتخاذ إجراءات حازمة ومُنسقة، ستتمكن المدن ومجتمعاتها من التعافي وإعادة البناء، بل وسرعان ما ستعود الأحياء التي تحولت إلى أطلال إلى الحياة.

على سبيل المثال، يمكن أن تعود مدينة تعز إلى سابق عهدها بأسلوب عمارتها المميز وإنتاجها لأنواع البن العطرة العالية الجودة، وأن تنفض عنها رائحة القمامة التي تملأ شوارعها. ومن جديد، قد تزدهر الموصل- مسرح قتال الشوارع الذي لا يهدأ- لتستعيد مجدها بوصفها مركزًا إقليميًا لتلقي العلم والطب وإنتاج النفط. أما حلب، فقد يبزغ فجرها من جديد لتبهر العالم بأطعمتها وموسيقاها، مبددة دويّ القنابل ومشاهد البنايات المنهارة.

هناك الكثير الذي قد يخسره المرء، والكثير الذي يمكن أن يكسبه. ولكن يجب علينا أن نعمل الآن، بكل عزم وإنسانية، من أجل أن يأتي يوم يمكن فيه لأناس مثل ذلك الموسيقي الشاب من حلب أن يقول "رأيت مدينتي تولد من جديد".

خفـض التكـلفة

إن حجم النزاعات التي تشهدها المدن اليوم ونطاقها أمران لا يمكن تجاهلهما، ومن ثم، هناك ضرورة إلى التزام عاجل وطويل الأجل من الجميع: من الأطراف المتحاربة والدول التي تدعمها، والمجتمع الدولي، والعاملين في المجال الإنساني، والجهات المانحة، والمواطنين العاديين في جميع أنحاء العالم.

وفي جميع النزاعات المسلحة، سواءً التي تندلع في المناطق الحضرية أو في غيرها، يحكم القانون الدولي الإنساني سلوك أطراف تلك النزاعات. فهو يلزم تلك الأطراف بالتمييز في جميع الأوقات بين الأهداف العسكرية والمدنيين والأعيان المدنية. ويحظر استخدام الأسلحة الكيميائية، وشن هجمات ضد المدنيين والمستشفيات. ويقضي أيضًا بأن تكفل أطراف النزاع معاملة المحتجزين معاملة إنسانية وكريمة، وأن تبحث عن الجرحى والمرضى وتتولى جمعهم وإجلاءهم، وأن تتعامل مع الرفات البشرية بشكل لائق، وأن تتخذ جميع التدابير الممكنة للإفادة عن المفقودين، وغير ذلك الكثير.

ويُعد التقيد الصارم بالقانون الدولي الإنساني الخطوة الأولى نحو تحسين أوضاع ضحايا النزاعات المسلحة. وثمة ضرورة ملحة لاتخاذ إجراءات عاجلة في المجالات العشرة التالية. وتهدف هذه التوصيات إلى الحد من أثر حروب المدن في منطقة الشرق الأوسط عن طريق تقليل حجم المعاناة التي تسببها، وتلبية الاحتياجات الملحة للمتضررين.

تحث اللجنة الدولية:

1. **الأطراف المتحاربة على احترام القانون الدولي الإنساني في جميع الأوقات**. فما يقوم به العدو من أعمال لا يبرر الانتهاكات بأي حال من الأحوال.

2. **الدول التي تدعم أطراف النزاعات المسلحة على التأكد من أن الأطراف التي تدعمها تحترم القانون الدولي الإنساني**. فهذه الدول في وضع فريد ومتميز يتيح لها ذلك.

3. **الأطراف المتحاربة على وقف تعريض المدنيين للحصار، وضمان سرعة وصول المساعدات الإنسانية لتلبية احتياجات جميع المجتمعات الحضرية واستمرارها وعدم إعاقتها، وضمان قدرة السكان على مغادرة هذه المناطق بأمان إذا اختاروا ذلك**. فللمصاعب الناجمة عن هذه الحصارات تداعيات على السكان ستستمر لأجيال مقبلة.

4. **الأطراف المتحاربة على تجنب استخدام الأسلحة المتفجرة التي لها تأثير واسع النطاق في المناطق المكتظة بالسكان**. وبصرف النظر عما تسببه هذه الأسلحة من موت ودمار داخل منطقة تأثيرها المباشر، فإن لها آثارًا على المدى الطويل على البنية التحتية للمدن والخدمات تشكل خطرًا كبيرًا على صحة السكان وبقائهم على قيد الحياة.

5. **الأطراف المتحاربة على احترام أنظمة دعم الحياة المعقدة في المدن وحمايتها**. وغالبًا ما تكون هذه الأنظمة المعقدة المترابطة التي توفر خدمات المياه والكهرباء والصرف الصحي الضرورية للصحة في المناطق الحضرية، من بين أول ضحايا حروب المدن. ويجب على الجميع اتخاذ الخطوات اللازمة لضمان عدم تعرض هذه الأنظمة للهجوم أو تعطلها بأي حال من الأحوال.

أثناء تقييم الأضرار الناجمة عن القتال في مدينة صنعاء اليمنية، يستمع موظف اللجنة الدولية إلى أحد سكان وهو يصف حالته. نيسان/ أبريل 2015.

6. **أطراف النزاع والمجتمع الدولي على الامتناع عن دفع الناس إلى النزوح، واحترام حقوق النازحين داخل بلدانهم وتلبية احتياجاتهم.**

7. **السلطات المعنية والمجتمع الدولي على حماية اللاجئين من جراء هذه النزاعات ومساعدتهم.**

8. **السلطات المعنية وأطراف النزاع والمجتمع الدولي على بذل المزيد من الجهود لضمان حماية مقدمي الخدمات الأساسية والعاملين في المجال الإنساني.**

9. **السلطات المعنية والجهات العاملة في المجال الإنساني والمجتمع الدولي على زيادة حجم الاستثمار في ضمان حصول ضحايا العنف على خدمات الدعم النفس-اجتماعي وخدمات الصحة النفسية الملائمة.**

10. **السلطات المعنية والجهات العاملة في المجال الإنساني والمجتمع الدولي على المساعدة في إعادة بناء المجتمعات المحلية، وليس فقط البنية التحتية.** فالمدن تتكون من بشر لا من مجرد مبانٍ. ويمكن أن يكون لطريقة إعادة بناء المدن تأثير هائل على ما إذا كانت ستتعافى في نهاية المطاف أم لا.

حلب، سورية

"ابني اختنق حتى الموت"

قصة حلب، ثاني أكبر مدن سورية: تحت القصف وتحت الحصار

تُعرف حلب، التي كانت يومًا أكبر مدن سورية من حيث عدد السكان الذي بلغ 2,1 مليون نسمة، بأنها واحدة من أقدم مدن العالم التي استمرت مأهولة بالسكان طيلة تاريخها.

بالنسبة لسكان مثل ياسر، وهو مدرب رياضي سابق في الخمسينيات من عمره وبائع متجول من حي بستان القصر، كانت حلب مكانًا رائعًا للعيش، ومدينة آمنة ازدهر فيها عمله وتمكن فيها وزوجته من تربية أطفالهما الخمسة وهم يشعرون براحة البال.

إلا أن ما يربو على أربع سنوات من النزاع العنيف بدلت كل ذلك. فها هي أحياء حلب التي كانت مكتظة بالسكان وقد أصبحت مسرحًا لقصف مستمر ومنهجي سواءً من الجو أو من قذائف المدفعية، ما أحدث دمارًا هائلًا وأسقط آلاف الضحايا. وفي نهاية المطاف، لم تنج أي منطقة من المدينة من العنف.

كان الحي الذي يقطنه ياسر أحد الأحياء العديدة التي تعرضت لتدمير شبه كامل. واليوم، نجد أن معظم المباني السكنية والمدارس والشركات والمحال التجارية قد سويت بالأرض نتيجة القصف، والشوارع التي كانت يومًا تعج بالناس غدت مجرد ممرات شبه خالية من المارة تسير متعرجة وسط أكوام الأنقاض المتناثرة.

بالنسبة لياسر، كان الإحساس بالرعب من القتال حقيقيًا. فقد تعرض المبنى الذي كان يسكن فيه للقصف بعد أن بدأت مجموعة معارضة مسلحة شن عمليات في الحي الذي كان يقطنه. يقول ياسر: "ابني اختنق حتى الموت من جراء الهجوم". وأضاف: "انهارت الطوابق الثلاثة الأولى من المبنى. ولم يكن لديه فرصة للنجاة".

S. Tarabishi/ICRC

الشوارع التي كانت يومًا تنبض بالحياة في حي الجديدة في حلب وقد دمرتها الحرب.
كانون الثاني/ يناير 2017.

"انهار المبنى.
ولم يكن لديه فرصة للنجاة".

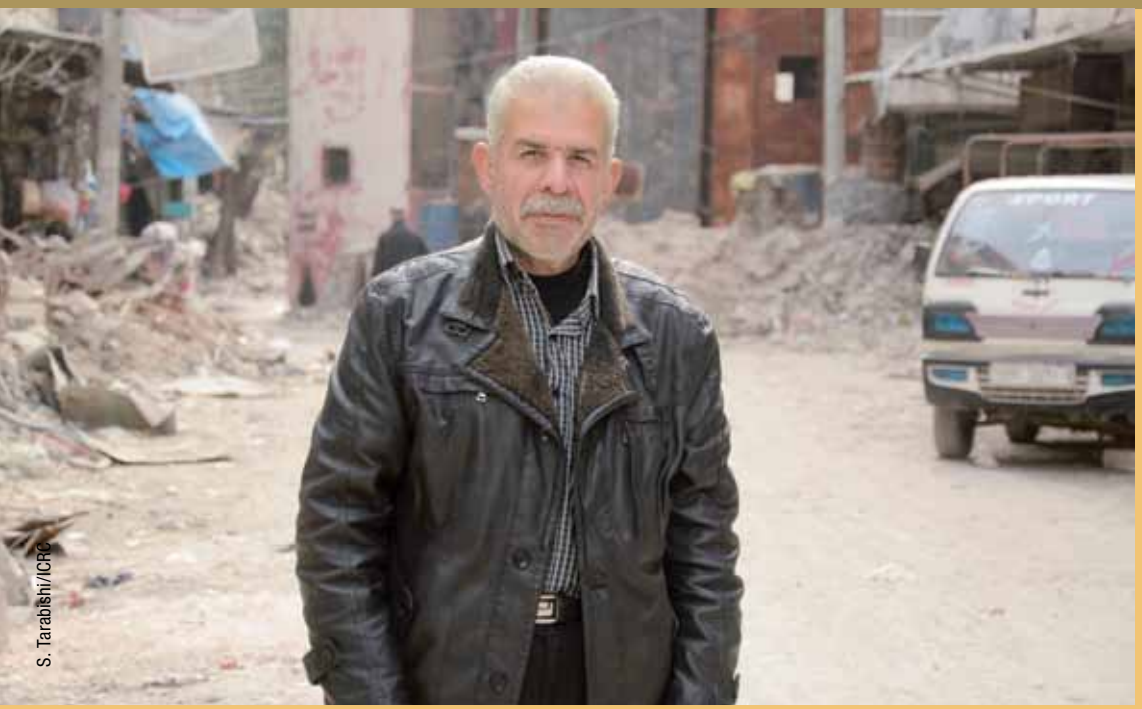
S. Tarabishi/ICRC

قصة ياسر

كما يرويها هو

"لم تكن لدي يومًا أي رغبة في الاختلاط بالأطراف المنخرطة في الحرب. فقد كنت أدرك تمامًا المخاطر التي ستظهر إذا ما وطأت أقدام المسلحين أي منطقة. ومن شأن وجود موقع عسكري على مقربة من المكان الذي كنا نعيش فيه أن يعرضنا للخطر. ولكن الخطر تحقق على أية حال؛ إذ وقعت الكارثة عندما تعرض المبنى الذي كنا نسكن فيه للقصف. اختنق ابني حتى الموت من جراء الهجوم. وانهارت الطوابق الثلاثة الأولى من المبنى. ولم يكن لديه فرصة للنجاة.

كنا عالقين بين شقي الرحى ولم يكن ثمة مخرج. لم أكن لأتمنى أن يخوض أي إنسانٍ كائنًا من كان تلك الصعاب التي واجهناها.

بعد موت ابني، عاشت زوجتي في خوف شديد. ولم يعد بإمكاننا رؤية بعض أبنائنا. كان أحدهم يؤدي الخدمة العسكرية منذ نحو سبع سنوات، وأرسلت ابني الثاني للدراسة في ألمانيا، آملًا في مستقبل أفضل له. أما ابنتي، فأُجريت لها عمليتان جراحيتان قبل الأزمة بسبب إصابة أحد الأوتار في ساقها. ولم تتمكن من تلقي العناية الطبية طوال فترة العنف.

أما ابني الأصغر فلديه مشكلة في تعلم الأرقام، وكان يتلقى تعليمه في مسجد صغير مجاور. وعندما تعرض المسجد لقصف عنيف، تحطمت آمال ابني في الحصول على تعليم أفضل.

وعندما بدأ حصار شرق حلب في شهر رمضان الماضي [عام 2016]، ازداد الوضع صعوبة إذ تقطعت السبل بالسكان لمدة 190 يومًا. وسادت حالة من الشلل التام. كان ابني يشعر بالجوع على الدوام لأنه لم يكن هناك طعام أو شراب. كان الطعام باهظ الثمن. واضطررنا إلى تناول أنواع مختلفة من الأطعمة التي يمثل العدس مكونًا أساسيًا فيها. ونتيجة لذلك، فقدت 25 كيلوغرامًا من وزني".

مستوى جديد من النزاع في المدن؟

إن قصة ياسر هي قصة تكررت آلاف المرات على مدار السنوات الأربع الماضية في مناطق مختلفة من مدينة حلب. وبينما جرى تقسيم المدينة إلى شرق (تسيطر عليه مجموعات المعارضة المسلحة) وغرب (يقع تحت سيطرة الحكومة)، اندلع قتال عنيف شبه يومي في الفترة من تموز/ يوليو 2012 إلى كانون الأول/ ديسمبر 2016، استُخدمت فيه على نطاق واسع الأسلحة المتفجرة الثقيلة في المناطق المأهولة بالسكان.

وفي أثناء النزاع، وقف العالم مصدومًا أمام صور أطفال حلب حينما ظهروا في لقطات مصورة وقد غطت وجوههم الدماء، وتبدو عليها علامات الحيرة أو الذهول أو الصدمة، أو وهم بين أيدي رجال الإنقاذ بعد انتشالهم من تحت الأنقاض وقد فارقوا الحياة.

ومع تصاعد وتيرة العنف، كافحت الجهات العاملة في المجال الإنساني ومقدمو الخدمات الأساسية من أجل تلبية احتياجات السكان المتزايدة بشكل كبير، لا سيما وأن وصول المساعدات الإنسانية كان محدودًا للغاية في بعض المناطق. وقد وصفوا الوضع بأقوى عبارات تعكس خطورة الموقف.

الإنسانية تحت القصف

بينما ازدات وتيرة الهجمات التي تؤثر على العاملين في مجال الرعاية الصحية والعاملين في المجال الإنساني في النزاعات في جميع أنحاء العالم، أصبحت معركة حلب رمزًا للأخطار التي يواجهها العاملون في مجال الرعاية الصحية في أثناء النزاعات في المدن.

وفي الوقت الذي دقت فيه اللجنة الدولية والمنظمات الإنسانية الأخرى مرارًا وتكرارًا ناقوس الخطر محذرة بشأن الوضع الإنساني المُتردي باستمرار، لا تزال الهجمات تستهدف البنية التحتية الأساسية كالمستشفيات، وشبكات إمدادات المياه والكهرباء، والمدارس طوال النزاع الدائر في حلب ومناطق حضرية أخرى. وفي العامين 2015 و2016، شُنّت سلسلة من الهجمات ضد المستشفيات والمرافق الصحية راح ضحيتها أطباء ومرضى، وحرمت الآلاف من رعاية صحية هم في أمسّ الحاجة إليها.

وقال رئيس اللجنة الدولية السيد بيتر ماورير ورئيسة منظمة أطباء بلا حدود الدكتورة جوان ليو في افتتاحية مشتركة *لصحيفة الغارديان* "إن ما نشهده هو اعتداء مستمر على تقديم الرعاية الصحية في أوقات النزاع، وعدم احترام بالغ لها".[9]

والحقيقة أن النزاع السوري يُعد أحد أخطر النزاعات على العاملين في المجال الإنساني على مستوى العالم. وقد أودى هذا النزاع بحياة 63 موظفًا ومتطوعًا من الهلال الأحمر العربي السوري،[10] قتلوا جميعًا في أثناء تأديتهم واجبهم، والكثير منهم في مدن مثل حلب وحمص. كما أصيب العديد من عمال الطوارئ الآخرين بجراح أو قتلوا بينما كانوا يحاولون إعادة الخدمات الأساسية للعمل أو إنقاذ الآخرين.

وجذبت هذه الهجمات على العاملين في مجال الرعاية الصحية ومرافقها الانتباه إلى هذه القضية، وحدت بمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة إلى أن يتخذ القرار رقم 2286 في 3 أيار/ مايو 2016. ويدعو القرار جميع الأطراف المتحاربة إلى حماية المرافق الطبية والعاملين في المجال الطبي، وهي من المبادئ الراسخة بالفعل في القانون الدولي الإنساني. ويدين القرار بشدة أعمال العنف والتهديدات الموجهة ضد الجرحى، والمرضى، والعاملين في المجال الطبي، والعاملين في مجال تقديم المساعدة الإنسانية. والمطلوب الآن هو الإرادة السياسية لوضع هذه الكلمات موضع التنفيذ، والمشاركة الفعالة من جميع الأطراف.

الإنسانية تتجلى

إن قصة مدينة حلب على مدار السنوات الخمس الماضية ليست مجرد قصة عن العنف والقسوة. فعلى الرغم من العنف الذي يحاصرهم والأخطار اليومية التي يتعرضون لها، أظهر العاملون في الهلال الأحمر العربي السوري ومتطوعوه- إلى جانب الأشخاص العاديين والمنظمات الإنسانية الأخرى- قدرة على الصمود يصعب تصديقها، وتحلوا بعزة نفس وشجاعة فاقت كل تصور وهم يعملون من أجل مساعدة الناس على البقاء في ظروف بالغة الصعوبة.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها الفرق التابعة للجنة الدولية، فإنها لم تتمكن من إدخال المساعدات إلى شرقي حلب في الفترة بين نيسان/ أبريل وكانون الأول/ ديسمبر 2016، وكل ما استطاعته اللجنة الدولية هو تقديم الدعم عن بعد، على سبيل المثال عن طريق دفع تكلفة إمداد المطابخ الجماعية بالمياه أو مواد النظافة الصحية أو غاز الطهي، أو سداد رواتب العاملين هناك.

حطام سيارة إسعاف وسط الركام في حي الكلاسة في حلب. شباط/ فبراير 2017.

S. Tarabishi/ICRC

إخلاء شرقي حلب

في كانون الأول/ ديسمبر 2016، بعد أسابيع من القتال المروع- أحاطت فيه خطوط المواجهة بآخر معاقل المعارضة وحوصر مدنيون داخلها- توصلت الأطراف المتحاربة إلى اتفاق يسمح بإجلاء المدنيين والمقاتلين من شرقي حلب. وتوقف القتال أخيرًا في 15 كانون الأول/ ديسمبر، وخلال إلفترة بين ذلك التاريخ وحتى 22 من الشهر ذاته أجلي ما يزيد على 35 ألف شخص إلى المناطق الريفية المجاورة، كان من بينهم مئات المرضى والجرحى. وظلت فرق من الهلال الأحمر العربي السوري واللجنة الدولية تعمل في الميدان ليلًا ونهارًا طوال تلك المحنة، حيث عملت على توفير الرعاية الطبية وخدمات النقل، وتقديم ما يمكنها من مشورة ودعم في وضع يوصف بأنه مؤلم ومربك للغاية.

كانت عملية الإجلاء تلك هي المرة الأولى منذ نيسان/ أبريل 2016 التي تمكنت فيها الفرق التابعة للجنة الدولية من الوصول إلى بعض مناطق شرق حلب. وتقول السيدة ماريان غاسر، رئيسة بعثة اللجنة الدولية في سورية، التي كانت موجودة في موقع الأحداث في الأسابيع الأخيرة من العنف وطوال عملية الإجلاء: "كانت هناك سيارات محترقة. كان الدخان يتصاعد من المباني المجاورة". وأضافت "كان هناك الكثير من الخوف وعدم اليقين. وعندما وصلنا، كان المشهد يدعو للأسى. لقد واجه الناس خيارًا مستحيلًا. كانت أعينهم ملأى بالحزن".

وأمام درجات حرارة تجاوزت حد التجمّد، اضطر الناس إلى حرق كل شيء يجدونه، بما في ذلك البطانيات والملابس، التماسًا للدفء لهم ولأطفالهم ريثما يجري إجلاؤهم. تقول غاسر: "قررت بضع عائلات البقاء. ومع ذلك، لم يكن لدى معظمهم سوى خيارات محدودة للغاية، ورأوا أنه من الأفضل المغادرة في تلك المرحلة، إذ استحالت منازلهم ركامًا، ولم يكن لديهم سوى قليل من الطعام، وظلوا دون مياه أو كهرباء، ناهيك عن العنف الذي كانوا يتعرضون له منذ فترة طويلة. ما من أحد يمكنه تحمل هذه المعاناة".

S. Turkmani/SARC

اللجنة الدولية والهلال الأحمر العربي السوري يقيِّمان الظروف المعيشية في منطقة مساكن هنانو في شرقي حلب إذا ما قرر السكان العودة إليها. أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر 2016.

العودة إلى الديار

على الرغم من أن البعض يتحدثون بالفعل عن "حلب ما بعد النزاع"، فإن القتال ما زال مستمرًا في منطقة الريف المجاورة. وقبل أن يكون هناك حديث عن التعافي، يجب تلبية الاحتياجات الإنسانية المهمة والعاجلة في المدينة. وقد عاد نحو 140 ألف شخص إلى منازلهم منذ انتهاء العنف في المدينة. وليس بمقدور آلاف آخرين العودة بعد، ويرجع ذلك جزئيًا إلى الأضرار الجسيمة التي لحقت بمنازلهم. ولا يزال هذا الأمر ينطبق على المدن الأخرى التي تراجعت فيها وتيرة العنف في وقت سابق، مثل حمص. أما الأمر البالغ الأهمية فهو ضرورة السماح لجميع المدنيين النازحين- من حلب والمناطق الأخرى- بالعودة بأمان إلى مسقط رأسهم ومنازلهم، ومساعدتهم على ذلك إذا كان ذلك اختيارهم، ومتى قرروا ذلك.[11] انظر الآثار المتفاقمة: النازحون في المناطق الحضرية، صفحة 46.

على الرغم من تعرضها للتقسيم لسنوات عدة، دائمًا ما كانت حلب مدينة مترابطة، ودأب سكانها على التنقل بين مناطقها ما دام ذلك ممكنًا. وكان لكل أسرة أقارب في مناطق شتى، وهرب الكثيرون إلى أحياء أخرى في ذروة أعمال العنف أو غادروا المدينة كلية. ونتيجة لهذا الترابط يكون الشعور بالصدمة والضياع شعورًا جماعيًا، وبلغ الدمار حدًا هائلًا، وما تزال هناك أخطار كبيرة تمثلها الذخائر التي لم تنفجر وغيرها من مخلفات الحرب.

"لا يمكنني مغادرة مدينتي. هنا، يمكنني حفظ كرامتي".

S. Tarabishi/ICRC

"كانت حلب جنة على الأرض، كان لدينا كل شيء. ثم، في لحظة واحدة فقدنا كل شيء. لم يخطر لي يومًا أن أغادر المدينة. غير أني لا ألوم أناسًا فعلوا ذلك، فلم يكن لديهم أي خيار. كانت حلب مدينة آمنة. وفجأة تحولت من مكان يعمه السلام إلى مكان بالغ الخطورة. ويمكنني القول إن ما لا يقل عن 40 في المائة من السكان غادروا هذا الحي".

يكسب محمد، وهو أب لخمسة أطفال ويبلغ من العمر 48 عامًا، قوته من صناعة الأثاث في ورشة صغيرة في حي المشارقة في حلب، الذي كان يقع على خط المواجهة بين القوات الحكومية وقوات المعارضة في شرقي حلب طوال سير الأعمال القتالية.

"ذكريات عن مدينة كانت في يوم من الأيام نابضة بالحياة"

مدينة عريقة في خضم نزاع منسي

على مسافة ساعة بالسيارة من البحر الأحمر في جنوب غربي اليمن، كانت تعز، تلك المدينة العريقة التي تتسم بطبيعتها الجبلية، يومًا ما القاعدة الصناعية للبلاد، ومركز إنتاج البن، والعاصمة الثقافية للبلاد.

أما اليوم، فقد تحولت أجزاء من المدينة إلى أطلال، واستحال الكثير من بنياتها ذات الشكل المميز بالقرميد البني والأبيض ركامًا. وامتلأت الشوارع بالسيارات المحترقة والحطام.

وقد عانى سكان المدينة- الذين يربو عددهم على نصف مليون نسمة-[12] معاناة شديدة، وتعرضوا للقصف، وطلقات القناصة، والمعارك التي كانت تدور من شارع إلى آخر، والقصف الجوي. وبينما يُعتقد أن مئات الآلاف من السكان قد فروا من المدينة،[13] فإن نحو 200 ألف شخص بقوا خلال الأشهر الخمسة عشر التي كانت فيها المدينة تحت حصار كامل تقريبًا. انظر الآثار المتفاقمة: مدن تحت الحصار، صفحة 40.

ويعني الجمود النسبي في الوضع بين القوى المتناحرة أن خطوط المواجهة لم تتحرك بشكل كبير على مدار أشهر، ما يجعل السكان عالقون في آتون مواجهة مريرة طويلة الأمد.

وعلى الرغم من رفع الحصار جزئيًا، ما يزال الوضع الإنساني في المدينة اليوم كارثيًا، إذ لا يوجد طعام، أما الخدمات العامة- بما في ذلك خدمات الرعاية الطبية والتعليم- فقد انهارت فعليًا. وأصبح الخوف يسكن شوارع المدينة التي كانت يومًا ما تضج بالحياة. انظر قصة حنان التي ترد لاحقًا في هذا القسم.

نساء وأطفال يجلبون المياه من شاحنة لنقل المياه في منطقة محاصرة في تعز. تشرين الثاني/ نوفمبر 2016.

K. Al-Saeed/ICRC

K. Al-Saeed/ICRC

عواقب صحية كارثية

مثل غيرها من المدن التي تحولت إلى ساحة حرب ، كان أثر الحرب على الرعاية الصحية في تعز كارثيًا. ففي مدة لم تتجاوز 72 ساعة في تشرين الثاني/ نوفمبر 2016، أفادت المستشفيات الرئيسية في تعز استقبالها 200 جريحًا في المتوسط يوميًا، كان الكثير منهم يعاني إصابات ناجمة عن انفجارات، ولم يكن هناك مفر من بتر بعض أطرافهم.

ويجيء هذا الطلب الهائل على الرعاية الطبية العاجلة في وقت انهارت فيه جميع أنظمة الصحة العامة في تعز. فجميع المراكز الصحية العامة مُغلقة، في حين يعمل المستشفيان الوحيدان بالمدينة بالحد الأدنى من الموارد، وبعدد متضائل من الموظفين. ويكابد العاملون في مجال الرعاية الصحية الباقون مشاق العمل لساعات طوال، والانقطاع المتكرر في الكهرباء، والعمل تحت القصف بسبب قرب المستشفيين من خطوط المواجهة.

ونظرًا إلى أن المستشفيات يجب أن تعطي الأولوية للمصابين بإصابات تهدد حياتهم، فإنها نادرًا ما يتاح لها الوقت الكافي أو الموارد اللازمة للتعامل مع أمور الصحة العامة مثل صحة الأمهات والرضَّع، أو الأمراض المزمنة أو أمراض الجهاز التنفسي، أو التطعيمات الروتينية، أو رصد الأمراض المُعدية. كما تركز المستشفيات الميدانية التي تديرها المجموعات المسلحة على الجرحى بشكل أساسي.

أما خدمات الإسعاف الأساسية فهي شبه غائبة، ويحد القتال في كثير من الأحيان من قدرة العاملين في المجال الطبي والإنساني على الوصول إلى المصابين. وتتطلب أية بعثة ميدانية لحالات الطوارئ إجراء مفاوضات متعددة عبر الهاتف، وعند نقاط التفتيش في المدينة. وتستغرق مثل هذه المفاوضات وقتًا طويلًا، ما يمثل خطورة على حياة الناس.

والحقيقة أن جميع هذه الأمور تتفاقم نتيجة استمرار تردي الوضع الطبي في جميع أنحاء البلاد؛ فقد تعرض أكثر من 160 مرفقًا للرعاية الصحية لهجمات منذ عام 2015،[14] واضطرت مئات المرافق الأخرى إلى التوقف عن العمل بسبب نقص الوقود والمستلزمات، ولا يعمل حاليًا سوى 45 في المائة فقط من مرافق الرعاية الصحة.[15] كما أن ندرة الأدوية الأساسية والمستلزمات الطبية التي تدخل اليمن- وهي أقل من 30 في المائة من المطلوب- وعدم الانتظام في دفع رواتب العاملين في مجال الرعاية الصحية ومقدمي الخدمات الأساسية كلها أمور تزيد الأمور سوءًا.

رجل مسن يمر عبر الحطام الناجم عن الاشتباكات في الحي الذي يسكن فيه. كانون الأول/ ديسمبر 2016.

"في ذلك اليوم، انتهت حياتي".

- حنان، من سكان تعز فقدت زوجها. وهي تحمل ابنتها الصغيرة.

قصة أرملة

كما ترويها هي

"لم يكن زوجي مقاتلًا. بل لم يعرف يومًا كيف يحمل سلاحًا. كان لديه عيادة أسنان خاصة، وعملت معه سكرتيرة. وقد رزقنا بطفلة. كنا في غاية السعادة إلى أن اندلعت الحرب في المدينة. ثم تبدل كل شيء.

لم نكن نرغب في مغادرة المكان الذي قضينا فيه كل حياتنا، لذا قررنا البقاء في منزلنا حيث كانت عيادة زوجي، على الرغم من الاشتباكات العنيفة، والقصف العشوائي.

كل جيراننا غادروا المدينة، بعد أن خيمت أجواء الدمار، والدماء، والخوف، والوَحشة على منطقتنا.

كنت أضم طفلتي إلى صدري عندما كانت تقع اشتباكات، وآخذها إلى غرفة أخرى لأحميها بشكل أفضل من أصوات تلك الاشتباكات.

وفي يوم من تلك الأيام العصيبة، ذهب زوجي لشراء بعض الأغراض للمنزل. وفي طريق عودته إلى المنزل، أصابته رصاصة من بندقية قناص من على سطح إحدى البنايات المجاورة. لقي زوجي مصرعه.

في ذلك اليوم، انتهت حياتي. فقدت زوجي وعملي ومنزلي. عجزت عن سداد الإيجار، وذهبت للعيش مع عائلتي. والدي، بدخله المحدود، يتحمل نفقاتنا نحن وأشقائي السبعة. لم يتبق لي شيء في هذه الحياة، سوى ذكريات عن مدينة كانت في يوم من الأيام نابضة بالحياة.

أتمنى أن تنتهي الحرب، وأن نرى الأطفال يذهبون إلى المدرسة. أود أن أراهم يلعبون ويلهون كسابق عهدهم. أريد مستقبلًا أفضل لطفلتي، مستقبل لا يعرف الحروب أو القتل.

أطفال يلعبون في شوارع الموصل. وقد عانت المدينة كثيرًا من الهجمات الأخيرة، وتعرض الكثير من المنازل والبنية التحتية المدنية للدمار أو لأضرار . آذار/ مارس 2017.

الموصل، العراق

"أينما تولي وجهك، هناك من يحاول قتلك"

على الرغم من أن معركة الموصل بدت في مستهلها معركة تخالف ما شوهد في بعض المعارك الأخرى في مدن العراق التي أسفرت عن دمارٍ واسع النطاق، لكن في ظل استمرار القتال الضاري الذي يدور من شارع إلى شارعٍ ومن منزل إلى منزل يزداد حجم الخسائر، حتى فاقت التكلفة التي يتحملها المدنيون قدرتهم على التحمل.

كان يوسف يتناول الإفطار عندما طالت المعركة من أجل السيطرة على المدينة عتبة بابه. يقول يوسف: "بينما كنت آخذ رشفة من الشاي، وقع انفجار دون سابق إنذار. تطايرت الشظايا لتصيب ذراعَي وساقَي. نهضت واقفًا، وهرعت إلى السيارة، ونُقلت إلى المستشفى. أصبت بجروح في ساقَي ورأسي وذراعَي. وأصيب جميع أفراد أسرتي في الهجوم".

لقد حالف يوسف الحظ أن بقي على قيد الحياة. غير أن تلك التجربة المروعة باتت مألوفة للكثيرين مع استعار القتال في الموصل، ما يشكل تحديات خطيرة لسكان المدينة البالغ عددهم 1,5 مليون نسمة.

إن العمليات العسكرية التي تجري بشكل مستمر ليلًا ونهارًا، والتحول السريع الذي تشهده خطوط المواجهة، والخوف على سلامة الأحباء، والمخاطر المتصورة أو الحقيقية التي ينطوي عليها الخروج للحصول على الخدمات المنقذة للحياة- مثل

الرعاية الصحية أو المياه أو الطعام- ما هي إلا بعض الأبعاد الرئيسية للتكلفة الباهظة التي يتحملها المدنيون من جراء القتال.

يقول جوشوا بيكر، مخرج فيلم معركة الموصل، وهو فيلم وثائقي أنتجته شبكة تليفزيون بي. بي. إس (PBS) وصحيفة الغارديان، إنه لم تكن هناك أية مسافة تقريبًا بين المقاتلين والمدنيين في أثناء القتال شرقي الموصل.

ويضيف: "أخبرني أحد القادة العسكريين أن القتال يتخذ في بعض الأحيان منحى في غاية السوء، إذ يكون هو في المطبخ يطلق النار على عدوه، الذي يكون في غرفة المعيشة يرد عليه بإطلاق النار، في حين يوجد مدنيون- أسَر- في الطابق العلوي من المنزل". وكان بيكر قد عمل مع إحدى فرق قوات العمليات الخاصة العراقية في الموصل، قبل أن يصاب في هجوم.

شعر بيكر أن العنف المفرط الذي شهده قد أصبح أمرًا طبيعيًا لدى السكان الذين أصابتهم الصدمة. يروي بيكر قصة تعرض القافلة التي كان يسافر معها لكمين قائلًا:

"تمكنّا من الخروج عن طريق الرجوع إلى الخلف [بمركبة همفي Humvee المضادة للرصاص التي كنا نستقلها] لمسافة 200 متر تقريبًا ودخلنا في شارع آخر. وبينما كنا جالسين هناك، رأينا مقاتلين على مقربة منا. وكان هناك أطفال يلعبون بجوارنا مباشرة. ترجلت من المركبة وتحركت بعيدًا في محاولة للاحتماء، عندئذٍ فجر انتحاري نفسه في الشارع المجاور. وكان هناك أطفال آخرون يلعبون بجوار تلك المنطقة، وكان آباؤهم في مكان قريب. كان واضحًا أنهم كانوا مدركين ما يجري، غير أن العنف يبدو وكأنه صار أمرًا طبيعيًا بطريقة أو بأخرى".

بالإضافة إلى ذلك، يعمق التعامل غير الملائم مع الجثث والرفات البشرية، التي غالبًا ما تُترك في العراء أو تُحتجز تحت الأنقاض الشعور بالقلق واليأس، حتى مع بدء الناس العودة إلى حياة يومية أكثر طبيعية. وقد تُركت العديد من الجثث في أماكن عامة، بما في ذلك بالقرب من مصادر المياه، ما عمق الأثر النفسي على المدنيين، وزاد شعورهم بالخوف.[16]

"لقد غادرنا فقط بسبب القصف. لو بقينا، لكنا الآن في عداد الموتى". في النزاعات في المدن، غالبًا ما تصبح المنازل ساحات معارك. خالد وزوجته (في الصورة) يجلسان في إحدى الغرف المتضررة بشدة داخل منزلهما في حي التأميم. شباط/ فبراير 2017.

A. Liohn/ICRC

أسر نازحة من غربي الموصل. آذار/ مارس 2017.

واليوم، ما يزال شرقي الموصل يواجه تحديات في ضمان توفير الخدمات الأساسية مثل المياه، والكهرباء، والرعاية الصحية، وجمع القمامة. عادت الأسواق للعمل مرة أخرى، وأعادت المطاعم فتح أبوابها، إلا أن الكثير من الناس لا يستطيعون تحمل تكلفة شراء المواد الغذائية المتاحة.

يقول داني مرعي، المنسق الميداني للجنة الدولية في أربيل: "هناك غياب للكثير من الخدمات الرئيسية. وبعض الناس يخرجون من ديارهم مرة أخرى متوجهين إلى مخيمات أو مناطق أخرى بسبب استمرار عدم توفر الخدمات والطعام. وما تزال المنظمات الإنسانية تكافح من أجل الوصول المنتظم والآمن إلى أجزاء مختلفة من المدينة".

هناك أيضًا حاجة إلى إصلاح الكثير من المنازل، والمباني العامة، والمستشفيات، والمناطق أو الشوارع المتضررة أو إعادة بنائها. وفي الوقت نفسه، لا يزال الوضع الأمني هشًا، إذ ما تزال الأماكن العامة، مثل الأسواق، هدفًا للهجمات.

البقاء أو المغادرة: قرار حياة أو موت

على الرغم من هذه المصاعب والأخطار، تعكس معركة الموصل أيضًا بعض التقدم المحرز في الجهود الرامية إلى منع النزوح وهذا الكم الهائل من فقدان الأرواح والأضرار. وهي الأحدث من بين عدة معارك كبرى شهدتها مدن العراق على مدار 14 عامًا، بما فيها تلك التى دارت رحاها فى بغداد والفلوجة والرمادي.

ومؤخرًا، خلفت معركة الرمادي، التي استعادها الجيش العراقي من قبضة تنظيم الدولة الإسلامية بعد أربعة أشهر من القتال الضاري، دمارًا هائلًا. وقد فر معظم سكان المدينة في أثناء القتال. غير أنه بسبب تعرض نحو 80 في المائة من المدينة للدمار-[17] وانتشار المتفجرات في جميع أنحائها- لم يتبق سوى القليل الذي يمكن أن يعود السكان من أجله. وبحلول منتصف آذار/ مارس 2017، أي بعد مرور أكثر من عام على انتهاء المعركة، لم يعد سوى نحو 60 في المائة ممن فروا من المدينة.[18]

وفي جميع أنحاء البلاد، حتى قبل بدء هجوم القوات العراقية على الموصل في منتصف تشرين الأول/ أكتوبر 2016، اقتُلع نحو عُشر السكان العراقيين من ديارهم،[19] واحتاج نحو ثلث السكان شكلًا من أشكال المساعدة الإنسانية العاجلة. وبغية تجنب نزوح هائل آخر يحتمل أن تكون له تداعيات كارثية، وزع الجيش العراقي منشورات في الموصل لحث المدنيين على أن يلزموا المدينة.

بالنسبة للمدنيين، يُعد قرار البقاء أو اقتلاع أنفسهم من مدنهم قرارًا معقدًا، بل ومستحيل من عدة زوايا، نظرًا إلى المخاطر التي ينطوي عليها كلا الخيارين: الفرار والمخاطرة بالتعرض للقتل في الطريق، أو البقاء في مدنهم والمخاطرة بالعيش عالقين في مرمى النيران؟ وفي كلتا الحالتين ليس لديهم أي ضمان أن احتياجاتهم أو احتياجات عائلاتهم ستُلبى. انظر الآثار المتفاقمة: النازحون في المناطق الحضرية، صفحة 46.

وفي حالة الموصل، بعد ثلاثة أشهر من المعارك الشرسة من شارع إلى شارع في الجانب الشرقي من المدينة، فر أقل من سدس السكان من المدينة أو القرى المجاورة بحلول كانون الثاني/ يناير 2017.[20] وكان ذلك أقل بكثير مما كان متوقعًا.

"يبدو بعض العنف وكأنه أصبح أمرًا طبيعيًا".

صبي صغير يجد طريقة مبتكرة لاستخدام دراجته لنقل الوقود إلى منزله مارًّا بجنود عراقيين. آذار/ مارس 2017.

A. Lichn/ICRC

قتال عنيف، وخطوط مواجهة غير واضحة

بينما تُعد منطقة غربي الموصل أصغر جغرافيًا، فإن شوارعها الضيقة وكثافتها السكانية العالية تجعل خطوط القتال فيها غير واضحة إلى حد أكبر، ما يزيد حدة الأخطار التي يواجهها نصف مليون شخص لا يزالون هناك. وبنهاية آذار/ مارس، بعد أقل من شهر ونصف الشهر على بدء القتال لاستعادة غربي الموصل، ارتفع عدد الضحايا المدنيين بشكل حاد، وزادت أيضًا معدلات النزوح. وفي مطلع نيسان/ أبريل، ظل أكثر من 300 ألف من السكان نازحين من الموصل وضواحيها،[21] منهم نحو 274 ألف شخص من المدينة نفسها.[22] ومع ذلك، هناك عدد قليل من الطرق الآمنة التي يمكن للسكان استخدامها للفرار. وعلى الرغم من أنه يظل من المستحيل تأكيد عدد الوفيات، بدأت المستشفيات تشهد ارتفاعًا في أعداد المصابين. ومع استمرار المعركة من أجل استعادة غربي الموصل، لا يزال العاملون في المجال الإنساني يكافحون من أجل الوصول الآمن ودون معوقات إلى المنطقة لتوفير الغذاء، والمياه، والرعاية الطبية، وغيرها من الخدمات الأساسية والحيوية.

وتتجلى في الموصل توجهات جديدة بشأن حماية المدنيين والبنية التحتية في أثناء حروب المدن، وتمثل أيضًا تحديات جديدة في هذا الشأن. وفي الوقت الذي يخوض فيه المعركة الرئيسية مقاتلون على الأرض وداخل المدينة، بدعم جوي وضربات جوية من الطيران العراقي وقوات التحالف، ظهرت أيضًا تقنيات جديدة مثل الطائرات بدون طيار القاذفة للقنابل.

وفي معركة الموصل، يدرك الكثير من المقاتلين أن الهدف الطويل الأجل هو ضمان استقرار العراق. يقول بيكر: "غير أنه كما أخبرني أحد القادة، تتمثل الأهداف القصيرة الأجل في إنجاز المهمة والانتصار في المعركة التالية. من الواضح أن الأهداف الطويلة الأجل أكثر أهمية، غير أن الأهداف القصيرة الأجل سوف تقتلك إذا أخفقت في تحقيقها".

أسرة تغادر منزلها بعد انتهاء القتال في حيِّهم في الموصل. شباط/ فبراير 2017.

"الهجمات تأتي من كل مكان، بما فيها قاذفات القنابل، والشاحنات المفخخة، والقنابل الملقاة من طائرات بدون طيار، والقناصة ... أينما تولي وجهك، هناك من يحاول قتلك".

- جوشوا بيكر، مخرج فيلم معركة الموصل، وهو فيلم وثائقي أنتجته شبكة تليفزيون بي. بي. إس. (PBS) وصحيفة الغارديان

A. Liohn/ICRC

A. Liohm/ICRC

"استضافنا الناس على الرغم من صعوبة ظروفهم".

- محمد يقف مع شقيقه إبراهيم في منزلهما المتضرر.

العودة إلى الأطلال

كما يروونها هم

كانت أصوات القنابل، وقذائف الهاون، والرصاص تهدر فوق رؤوسنا. لاذ الجميع في الحي بالفرار. كان الأمر مروعًا. واضطرت النساء، والأطفال، والمعاقون إلى السير وسط كل هذا إلى أن وصلنا إلى منطقة أكثر أمانًا.

استضافنا [الناس] على الرغم من صعوبة ظروفهم، وتواضع إمكانياتهم. كنا نظن أن بإمكاننا العودة في غضون يومين، لذلك غادرنا الحي دون أن نحمل معنا أي شيء سوى ما كنا نرتديه من ملابس. وانتهى بنا الأمر بالبقاء لمدة 45 يومًا. ثم عدنا.

وجدنا سيارتنا مجرد هيكل معدني، ولحق بمنازلنا أضرار لا يمكن إصلاحها. فجّر أربعة مقاتلين أنفسهم داخل منزلنا. أخرجنا جثتين إلى الشارع.

قد يمكنك تعويض خسارتك في السيارة، ولكن ما من شيء يعوض خسارتك في بيتك إذا دُمّر. إنه المكان الذي تشعر فيه بالدفء والأمان، ولا شيء أغلى عند المرء من بيته.

اليوم، الموصل ليست آمنة. الدمار يعم المكان. والسكان هم من تولون بأنفسهم تنظيف هذه الفوضى.

محمد يروي كيف فر مع شقيقه إبراهيم وأسرتيهما من حيهم في شرقي الموصل عندما احتدم القتال. كانوا يتوقعون العودة في غضون أيام. وعندما عادوا بعد ذلك بشهر ونصف الشهر، وجدوا منازلهم مدمرة والمنطقة متضررة بشكل كبير.

المنطقة السكنية المتضررة في شرقي الموصل. شباط/ فبراير 2017.

ما هو إحساس المرء أن يعيش في مدينة تحولت إلى ساحة حرب؟

لا يمكن لأية قصة أن تصف بشكل وافٍ الأهوال الجمّة الناجمة عن حروب المدن. فالمدينة التي تحولت إلى ساحة حرب تشبه صورة مصغرة لنزاع أوسع نطاقًا، ولكن مع اختلاف يتمثل في أنه غالبًا ما تتفاقم تداعيات حروب المدن بسبب كثافة سكان المدينة وتنوعهم، واعتمادهم على البنية التحتية المعقدة للمدينة والهشّة في معظم الأحيان. وغالبًا ما يواجه سكان المدن التي تقع على خطوط المواجهة في النزاعات مصاعب شتى يرتبط بعضها ببعض ويفاقم بعضها بعضًا.

إن الناس الذين يعيشون تحت **الحصار**، أو في أوضاع تشبه الحصار، يفتقرون إلى أبسط المكونات الأساسية للحياة الطبيعية، ألا وهي الغذاء، والكهرباء، والمياه، والرعاية الصحية.

واضطر أناس آخرون إلى الفرار من منازلهم، والانتقال من حي إلى آخر، أو من مدينة إلى أخرى- بصورة متكررة في بعض الحالات- أو إلى المناطق الريفية. وهؤلاء الناس، **النازحون** داخل بلدانهم، يجب أيضًا أن يتعايشوا مع حقيقة أن الكثير من الأماكن التي يفرون إليها غير آمنة، وغير قادرة على تلبية احتياجاتهم.

يتمثل أحد أسباب عدم القدرة على تلبية هذه الاحتياجات في أن النزاع في المدن غالبًا ما يدمر **أنظمة الخدمات المعقدة**؛ الكهرباء، والمياه، والصرف الصحي، وجمع القمامة، والرعاية الصحية، التي تضمن استمرار حياة المدينة. ويُعزى جزء كبير من تعطل تلك الأنظمة إلى استخدام **الأسلحة المتفجرة التي لها تأثير واسع النطاق**، والتي لا تقتل الناس وتدمر المباني فحسب، بل لها أيضًا آثار طويلة الأجل على الأنظمة التي تدعم الحياة والصحة في المدن.

ولكن المدن هي أكثر من مجرد مبانٍ وشوارع وبنية تحتية. فدويّ القنابل الذي لا يهدأ، والخوف من الخروج من المنازل، وموت الأصدقاء، وأفراد العائلة والجـيران كلها أمور لها **تأثير عاطفي ونفسي** يجب التعامل معه.

في الأقسام التالية، سنعرض لكم قصص أناس يكافحون لمواجهة كل هذه الأمور، ونوضح ما لهًا من أثر هائل على الأفراد وعلى سكان المدن ككل.

1 مدن تحت الحصار

2 النازحون في المناطق الحضرية

3 أنظمة المدن المعقدة

4 الأسلحة المتفجرة في المناطق المأهولة بالسكان، والأسلحة الكيميائية، والتلوث بالأسلحة

موظفو اللجنة الدولية يقيمون الأضرار الناجمة عن القتال الذي دار مؤخرًا في منطقة صوان في مدينة صنعاء اليمنية. أيار/ مايو 2015.

"العيش تحت الأرض"

الانقطاع عن العالم الخارجي والتشبث بالحياة

S. Tarabishi/ICRC

اتسمت حروب المدن في منطقة الشرق الأوسط في وقتنا الحاضر بالاستخدام المتزايد لشكل قديم من أشكال حروب المدن، ألا وهو الحصار.[23] ففي عام 2016، تعرض شرقي حلب لحصار معروف استمر لمدة 190 يومًا، وتسببت عرقلة وصول المساعدات الإنسانية في معاناة كبيرة بين المدنيين في العديد من البلدات والمدن الأخرى في منطقة الشرق الأوسط، مثل الفلوجة، وتعز، ودير الزور، والفوعة، وكفريا، ومضايا.

وفي مدينة حمص القديمة في سورية، التي تعرضت لحصار استمر من أيار/ مايو 2012 إلى أيار/ مايو 2014، يقول هاني، وهو بائع يعمل على عربة، إن عائلته كانت تجمع الحطب في الشوارع ليلًا، إذ لم يكن هناك وقود ديزل، أو غاز، وكانوا لا يستطيعون التحرك في أثناء النهار بسبب القتال.

ويضيف أنه بسبب نقص المواد الغذائية، حاول السكان زراعة الخضراوات الخاصة بهم، ولكنهم اضطروا في كثير من الأحيان إلى اللجوء إلى تناول العدس المتعفن جزئيًا، والنباتات التي كانت تنمو في الشوارع، والتي لم تكن تُعد صالحة للأكل في الظروف العادية. يقول أبو هاني: "فقدنا الكثير من وزننا [في تلك الفترة]. فالمرء لا يفكر في الطعام عندما يكون خائفًا، وتكفيه وجبة واحدة".

وفي بعض الحالات، تكون المدن التي تشهد نزاعات تحت الحصار فعليًا بسبب الصعوبة الشديدة في إدخال البضائع إليها أو إخراجها منها. وقد أدى الحصار الجزئي المفروض على مدينة تعز منذ صيف عام 2015 إلى دفع الاقتصاد المحلي إلى حافة الانهيار. تقول نانسي حمد، التي تدير مكتب اللجنة الدولية في تعز: "أغلقت معظم الأسواق في المدينة، وفي الأسواق الأخرى التي ما يزال لديها بعض المواد الغذائية الأسعار مرتفعة للغاية حتى أن الناس ليس لديهم ما يكفي من المال لشراء أي شيء". وتضيف: "شهدت حالات سوء التغذية ارتفاعًا حادًا، لا سيما بين الأطفال".

وتابعت قائلة: "رأينا أناسًا يأكلون من القمامة لأنهم لا يملكون سبل الحصول على الغذاء. ورأينا نساءً يقطفن أوراق الأشجار ويغلينها لكي يُقدّمن لأطفالهنّ بعض الحساء الساخن".

بالإضافة إلى ذلك، يمكن أن يؤدي القتال داخل مدينة محاصرة أو حولها إلى تدمير المحاصيل في الحقول داخل المدينة أو في أطرافها، أو الحيلولة دون الوصول إلى تلك الحقول. وفي أحد مخيمات النازحين داخليًا، يتذكر الأطفال الذين غادروا مؤخرًا إحدى المدن المحاصرة فترات الجوع القارص. يقول أحدهم: "لا أستطيع أن أتذكر المرة الأخيرة التي رأيت فيها لحم دجاج أو أغنام".

"حتى اليوم، تستيقظ بناتي في الليل خائفات، يردن أمهنّ. إنهن يفتقدنها. جميعنا نفتقدها".

أبو هاني، الذي فقد زوجته وابنه عندما أصاب صاروخان منزله في البلدة القديمة في مدينة حمص القديمة، واقفًا مع بناته الثلاث. بعد سنتين ونصف السنة من نزوحهم، عادوا الآن إلى منزلهم الذي قاموا بإصلاحه بمساعدة الجمعيات الخيرية. كانون الثاني/ يناير 2017.

وفي مدينة أخرى تحت الحصار، يكتفي الناس بوجبة واحدة ضئيلة يوميًا، عادة ما تكون عبارة عن مرق يتكون من الماء والقمح أو الشعير. وقد يأكل الناس بعض الأرز أو البرغل، إذا كان متوفرًا. وقالت بعض النساء لمندوبي اللجنة الدولية إن أطفالهن الأصغر سنًا لا يعرفون كيف يبدو شكل الفاكهة.

ومن الصعب للغاية على المنظمات الإنسانية إيصال الغذاء وغيره من المواد المنقذة للحياة، مثل المستلزمات الطبية، إلى الأشخاص الذين يعيشون تحت الحصار، ولهذا السبب تواصل هذه المنظمات توجيه نداءات عاجلة للوصول إلى المدن المحاصرة.

وتجدر الإشارة إلى أن القانون الدولي الإنساني لا يحظر الحصار الموجه ضد المنشآت العسكرية للعدو دون غيرها، ولكنه يحظر بعض الممارسات، أو أساليب الحرب التي ترتبط عادة بالحصار، مثل تعمد تجويع السكان المدنيين. علاوة على ذلك، فإنه يوجِب على الأطراف المعنية ضمان حصول المرضى والجرحى على الرعاية الطبية التي يحتاجونها. ويجب على كل من الأطراف المحاصَرة، والأطراف التي تفرض الحصار أن تولي عناية مستمرة، عند تنفيذ العمليات العسكرية، لعدم إلحاق أي ضرر بالمدنيين.

تدبر الأمور في أوضاع متردية

في أحد مخيمات النازحين، تمكنت أخيرًا مجموعة من الأطفال الذين غادروا مؤخرًا إحدى المدن المحاصرة في سورية من اللعب. يقول أحدهم "أنا سعيد جدًا هنا". ويضيف: "أستطيع أخيرًا الركض في المكان. قبل ذلك، كنا نعيش تحت الأرض، ونادرًا ما كنا نستطيع الخروج بسبب القصف. وكانت لعبنا الوحيدة عبارة عن قطع من الحجارة".

أما وإنهم غالبًا ما يعيشون وسط حطام المدينة، يتعلم الناس تحت الحصار كيف يتدبرون أمورهم بدون كهرباء ومياه جارية، وهم يُظهرون بذلك قدرة غير عادية على المقاومة. وعندما لم تعد مستلزمات التنظيف اليومية متوفرة في الأسواق المحلية، شاع بين الناس استخدام الرماد في غسل ملابسهم. وقام بعضهم بتصنيع الوقود الخاص بهم عن طريق معالجة البلاستيك، وهي عملية بدائية تُغلى فيها قطع صغيرة من البلاستيك في أسطوانات لنحو تسع ساعات لاستخراج سائل يعرف باسم الطلقة، الذي يمكن جمعه واستخدامه لتشغيل المولدات، والدراجات النارية، ومضخات المياه، وغيرها من الآلات.

وتُعد مياه الشرب أيضًا سلعة نادرة وثمينة. فالآبار المتوفرة مخصصة لري المحاصيل، لذلك يجب غلي الماء قبل استعماله، غير أن بعض الناس يشربون المياه مباشرة من تلك الآبار، ما يعرضهم لخطر الإصابة بالأمراض المنقولة عن طريق المياه. وتستخدم الجرارات لنقل المياه من الآبار إلى بعض الأحياء، ولكن بسبب نقص الوقود، لا تعمل المولدات التي تزود المضخات بالكهرباء إلا لساعة واحدة أو ثلاث ساعات يوميًا.

الرعاية الصحية تحت الحصار

بالنسبة للمستشفيات، يعني نقص المياه النظيفة، والتغذية السليمة مزيدًا من حالات العدوى المعوية، بالإضافة إلى الحالات المطردة التي تستقبلها المستشفيات من المصابين بجروح نتيجة إطلاق النار أو الانفجارات. ويتعرض العديد من المستشفيات أيضًا للقصف أو تعاني نقصًا حادًا في المعدات والمستلزمات الطبية الأساسية، بما في ذلك مستلزمات التخدير، والمضادات الحيوية، وسوائل الحقن الوريدي. بالإضافة إلى ذلك، فإن مستلزمات العمليات الأساسية القليلة التي قد تتوفر غالبًا ما تكون مكلفة للغاية في وقت تفتقر فيه المستشفيات إلى الدخل أو التمويل الذي يمكن الاعتماد عليه.

وبينما يستخدم العاملون في المستشفيات المولدات الكهربائية في أغلب الأحيان لتجنب توقف العمل نتيجة الانقطاع المتكرر في التيار الكهربائي، فإن نقص الوقود يعني عدم توفر بعض الخدمات الصحية التي تكون هناك حاجة ماسة إليها. ويعني انهيار الاقتصاد المحلي، أو عدم وجود تمويل حكومي أن المستشفيات تفتقر إلى الموارد اللازمة لدفع رواتب العاملين، وغالبًا ما يبذل الأطباء، والممرضون، وموظفو الدعم جهودًا بطولية للحفاظ على استمرار العمل في المرافق الطبية حتى في أثناء كفاحهم لإطعام أسرهم. بيد أن المستشفيات تحت الحصار، مثلها مثل العديد من قطاعات المجتمع، تعاني نقصًا شديدًا في العاملين.

وفي كثير من الحالات، توفر المنظمات الإنسانية المعدات والمستلزمات الطبية وغيرها من أشكال الدعم، بما في ذلك الأموال اللازمة لدفع رواتب العاملين. غير أن القيود المفروضة على الوصول إلى المناطق المحاصرة تجعل هذه المساعدات غير متسقة، وغير كافية، بل ويستحيل ضمان استمرارها في بعض الحالات.

علاوة على ذلك، غالبًا ما تكون هناك أماكن قليلة خارج المناطق الحضرية يمكن للناس الفرار إليها، لأن المدن وحدها هي التي تملك الموارد اللازمة لدعم أعداد كبيرة من الناس.

A. Al-Rasni/ICRC

القيود المفروضة على حركة البضائع إلى تعز وداخلها منذ تموز/ يوليو 2015 دفعت الكثيرين إلى خوض رحلات صعبة وخطيرة في بعض الأحيان عبر طرق جبلية شديدة الانحدار لجلب الطعام والاحتياجات الأساسية الأخرى. تعز، جبل صبر، طالوق، تموز/ يوليو 2016.

A. Kambal/ICRC

الهروب من مدينة تحولت إلى ساحة حرب والعودة إليها: بعض التجارب المروعة

كما يروونها هم

قصة عمار ورنيم

عايش عمار ورنيم بأنفسهم الأهوال التي تنطوي عليها حروب المدن. وهما يرويان كيف هربا في البداية مع طفلتهما من مدينة حمص السورية التي مزقتها الحرب، وذلك في عام 2012، وبعدها عاشوا في مدينتين قريبتين قبل العودة أخيرًا إلى حمص. ويتذكر عمار أيضًا المرة الأولى التي عادت فيها الأسرة إلى بيتها القديم في حمص. ولا تختلف قصتهما عن قصص نحو ستة ملايين نازح داخل سورية. انظر القسم الخاص بالنازحين، صفحة 46.

عمار: عندما وصلنا إلى منطقة مجاورة لساحة الساعة القديمة في حمص، بدأ إطلاق نار كثيف. فقد هاجمت مجموعة معارضة من أحد الجوانب، وردّ جنود الجيش بإطلاق النار من المبنى الذي كانت سيارتنا بجواره. كنت واقفًا أمام السيارة، وكانت زوجتي وطفلتي في المقعد الخلفي. واصطدمت أغلفة الطلقات بنوافذ السيارة.

رنيم: أخيرًا، بعد بضع لحظات مخيفة، تمكنا من الوصول إلى منزلنا بأمان.

عمار: في ذلك الوقت، أقيمت نقاط تفتيش في الحي، وقُطع التيار الكهربائي والمياه. وكانت جميع المواد الأساسية للحياة تختفي تدريجيًا.

ولكن مغادرة مدينة تشهد نزاعًا ليست بالأمر اليسير أو الآمن. يتذكر عمار ورنيم تجربتهما المروعة في الرحيل إلى مدينة طرطوس القريبة.

عمار يزور حيه القديم في حمص، سورية. كانون الثاني/ يناير 2017.

عمار: وصلنا إلى نقطة التفتيش الأولى، حيث الكثير من الجنود. جاء أحد الضباط، وسألني عما كنا نفعله هناك. أخبرته أننا في طريقنا إلى طرطوس. وقد سمح لنا بالذهاب، ولكن طلب منا أن نقود بأقصى سرعة ممكنة. فعلنا ما قاله، ولكن بعد دقيقة وصلنا إلى نقطة تفتيش أخرى. هناك صوب الجنود بنادقهم إلينا بمجرد رؤيتنا. لوّحت بيدي من النافذة، وكانت زوجتي في شدة الخوف.
توجه ضابط يعلو وجهه الغضب إلى السيارة. وسألني "من أنت؟".
أجبته بأنني مسافر إلى طرطوس مع أسرتي. فأجاب بأنه لولا أنه رأى الطفلة لكان أمر جنوده بإطلاق النار على السيارة. وقال "لقد نجوت بفضلها". بعد ذلك، سمح لنا بمواصلة طريقنا.

وأخيرًا، ذهبا للعيش في منطقة أخرى من حمص حتى تتمكن رنيم من العودة إلى وظيفتها في التدريس. واعتمدا على الجمعيات الخيرية في الحصول على الحفاضات، والملابس، والحليب من أجل طفلتهما.

عمار: بعد عامين، انتهى الحصار. وكنت من بين المجموعة الأولى التي عادت إلى المنطقة. توجهت مباشرة لأتفقد منزلي. كانت المتاريس تغلق شارعنا، لذلك اضطررت لدخول أحد المنازل والقفز منه إلى منزل آخر، وهكذا حتى وصلت إلى منزلنا. أعجز عن التعبير عن مشاعري. لقد صدمت. كان الأثاث كله محطمًا، وتعرض أحد الجدران للدمار ... بحثت عن بعض أهم ممتلكاتنا وعثرت عليها، وهي أشياء لها قيمة عاطفية كبيرة لنا، أشياء أعادت ذكريات غالية.
رنيم: اتصلت بعمار. كان يحدثني وهو يبكي.
عمار: نعم. كنت أبكي لأنني لم أعرف لماذا حدث هذا لي. لماذا حدث هذا لنا؟

"لو بقينا، لكنّا الآن في عداد الموتى"

الفرار من المدن التي تحولت إلى ساحة حرب، أو إليها، أو داخلها: التحديات التي يواجهها النازحون في المناطق الحضرية

في أثناء النزاع المسلح، يفر الناس من منازلهم لأسباب عدة من أجل حماية أنفسهم وعائلاتهم. ويمكن أن يمثل الفرار وسيلتهم الوحيدة لإنقاذ حياتهم. وهم يجبَرون في بعض الحالات على النزوح القسري، وهو ما يخالف القانون الدولي الإنساني. وقد يرحلون عن منازلهم على عجل أو بعد تخطيط دقيق، حاملين بعض المتعلقات الأساسية أو لا شيء سوى الملابس التي عليهم. وبغض النظر عن الطريقة التي يفرون بها، فإن للنزوح آثارًا كبيرة وطويلة الأجل على الأفراد والأسر النازحة، وكذلك على المجتمعات المحلية التي تستقبلهم، بل وعلى بلدهم بأسرها، لا سيما عندما يضطر الناس إلى النزوح لفترات طويلة من الزمن.

وقد فرّ نحو 17,5 مليون شخص[24] من ديارهم نتيجة الحروب الدائرة في اليمن، والعراق، وسورية. وظل معظمهم، نحو 11,9 مليون شخص، داخل بلدانهم. ويُعد هؤلاء الاشخاص- الذين يُطلق عليهم مُسمّى "النازحون داخليًا"- من بين المدنيين الأكثر استضعافًا. وهم غالبًا ما يظلون عرضة للهجوم وقد لا يكونون دائمًا قادرين على الوصول إلى مناطق آمنة تمامًا، بل وغالبًا ما يضطرون للنزوح مرارًا، إذ تصبح المناطق التي يفرون إليها هي نفسها المناطق التي يفرون منها.

"كنا نعيش يومًا حياة كريمة ومريحة. كان لدينا منزل، وكان لدي وظيفة براتب شهري مستقر. وعندما اندلع العنف، فقدت وظيفتي، مثلي مثل الآخرين، فقدنا كل شيء.

والآن أنا أضطر إلى اقتراض المال لشراء الحليب لأطفالي. لا توجد مدرسة هنا، ولا أستطيع تحمل تكاليف وسيلة انتقالهم إلى المدرسة. ابني مصاب بمرض جلدي، ولكن ليس لدي سيارة لنقله إلى العيادة لتلقي العلاج".

- أب عراقي لعشرة أبناء، نزحوا من بلدة سنجار في عام 2014، وظل يرتحل مع أسرته من مكان إلى آخر منذ ذلك الحين.

I. Sherkhan/ICRC

النازحون من جراء القتال في الموصل يصطفون للحصول على المواد الغذائية من اللجنة الدولية وجمعية الهلال الأحمر العراقي في مخيم يستضيف 250 ألف شخص. كانون الثاني/ يناير 2017.

ماريان غاسر، رئيسة بعثة اللجنة الدولية في سورية مع طفلين صغيرين نازحين من منزليهما في حلب. وأجبرت أسرتاهما وكثير من الأسر الأخرى في هذا المأوى على الفرار مرة أخرى عندما طال القتال المنطقة. تموز/ يوليو 2016.

S. Tarabishi/ICRC

وقد ينتقل النازحون إلى المدن بحثًا عن الأمان، والطعام، والمأوى، والرعاية الصحية، والعمل، غير أنه ما من شيء يضمن لهم أنهم سيجدون هذه الأمور لأن الموارد قد استنفدت بالفعل أو تقلصت بشدة من جراء القتال الدائر في المناطق المجاورة. وقد جذبت حلب، وهي مسرح لأحد أسوأ معارك المدن في التاريخ الحديث، آلاف السوريين من الأماكن المجاورة. وعلى الرغم من العنف الدائر هناك، ما تزال أجزاء من حلب تبدو آمنة نسبيًا، وقد تكون جاذبة بفضل قربها من منازل هؤلاء النازحين. ولكن مع تغيّر خطوط المواجهة، وتضرر بعض تلك المناطق التي كانت من قبل آمنة، اضطر كثير من الناس إلى الفرار مرة أخرى.

يوضح كل هذا مدى المعاناة التي يلاقيها الناس. وتقول أفريل باترسون، منسقة الشؤون الصحية للجنة الدولية في سورية في السنوات الثلاث الماضية: "في بعض المناطق التي ذهبت إليها، كان حجم الدمار هائلًا ومطلقًا". وتضيف: "أنت تقف وتنظر إلى المباني المدمرة بالكامل، أو المباني التي لا تصلح للسكنى نهائيًا. ثم تدخل وتكتشف أن هناك مستشفى ميدانيًا في الطابق السفلي".

إن ما تنطوي عليه حروب المدن الحديثة وأساليبها من دمار يساعد على تفسير سبب اضطرار الناس إلى ترك منازلهم ومجتمعاتهم المحلية. وفي بعض الحالات، يجبر الافتقار الكامل إلى الخدمات الأساسية اللازمة لإنقاذ الحياة مجتمعات محلية بأسرها على الإسراع بالانتقال للحصول على الرعاية الطبية العاجلة. ولنأخذ الموصل مثالًا على ذلك. تقول سارا الزوقري، المتحدثة باسم اللجنة الدولية في العراق: "كافح الكثير من الجرحى من أجل الحصول على الرعاية الطبية في الموصل". وتستطرد قائلة: "سمعت عن فتى يبلغ من العمر 13 عامًا أصيب بالرصاص في أثناء محاولته الفرار. ولم يمكن إجلاؤه لمدة ثلاث أو أربع ساعات. وأخبرني أحد الرجال أنه عندما شعرت زوجته بآلام المخاض، استغرقت مغادرة المدينة والعثور على مستشفى ميداني حيث وضعت مولودها ما بين سبع وثماني ساعات".

نازحون غير ظاهرين

أيًا ما كانت أسباب تركهم منازلهم، فإن محنة الأشخاص الذين يفرون إلى المدن غالبًا ما تصبح أكثر صعوبة بسبب كونهم عادة أقل ظهورًا من الأشخاص الذين يفرون إلى المناطق الريفية أو المخيمات التي أنشئت لاستضافة النازحين. في بعض المدن السورية، على سبيل المثال، حُوّلت مبانٍ مهجورة أو غير مكتملة البناء إلى مآوٍ جماعيةً. وقد أنشأت بعض الأسر مآوٍ مؤقتة في هذه المباني، في حين ذهب العديد من الأسر الأخرى للإقامة مع الأقارب".

ويُعد التحرك الجماعي للمواطنين في غربي حلب في آب/ أغسطس 2016 مثالًا حيًا على ذلك. فقد فر آلاف الأشخاص من منازلهم واتخذوا من أي مكان وصلوا إليه مأوى لهم، بما في ذلك في الحدائق العامة، والمساجد، والمدارس، والمباني غير المكتملة البناء، وكان الكثير من تلك المباني بدون جدران، ولا مراحيض، ولا مياه جارية. وتحولت المشاريع قيد الإنشاء، التي كان يُتصور في الأساس أن تصبح مساكن فاخرة، إلى ملاجئ جماعية غير رسمية لا تتوفر فيها شبكات صرف صحي، أو بنية تحتية للمياه، أو طرق. واضطرت المنظمات الإنسانية إلى الارتجال في استجابتها لتلك الأوضاع، على سبيل المثال، قامت تلك المنظمات بتركيب تجهيزات عازلة لحماية الناس من البرد أو الحر، وتوفير حواجز تقسيم تضمن الخصوصية، وابتكرت أيضًا حلولًا قصيرة الأجل لتوفير المياه.

وغالبًا ما تكون احتياجات النازحين بالغة التعقيد، ولا تقتصر على المساعدات المادية. على سبيل المثال، في حالة الفوضى التي تشهدها عمليات المغادرة المفاجئة والمتعجلة، كثيرًا ما يتشتت بعض أفراد الأسرة عن بعض، وغالبًا ما يفقد الناس الوثائق الرسمية المطلوبة للحصول على الخدمات الأساسية مثل الرعاية الصحية والتعليم، أو يخلفونها وراءهم.

ولأن الناس غالبًا ما يتحركون دون أن تقتفي السلطات أو المنظمات الإنسانية أثرهم، فإنه يصعب في كثير من الأحيان معرفة أماكن النازحين، واحتياجاتهم، وكيفية الاستجابة لها بفعالية- ولا سيما الفئات المستضعفة مثل المسنين، والمعاقين، والأطفال المنفصلين عن ذويهم. وفي المدن، وخاصة المدن الأكبر حجمًا، يزيد تشتت النازحين من صعوبة تحديد هويتهم والوصول إليهم.

وفي بعض المدن، أنشئت أنظمة للمساعدة في اقتفاء أثر النازحين، لكنها غالبًا لا يكتب لها الاستمرار. ومن ثم، تكون التقديرات الخاصة بالنازحين في هذه المدن متحفظة للغاية على الأرجح، والمعلومات عن احتياجاتهم غير مكتملة، مما يزيد من صعوبة الاستجابة لها بشكل كامل وفعال.

أسرة تستخدم طريقًا غير ممهد وموحل وجبلي لمغادرة المناطق المحاصرة في تعز.
تشرين الثاني/ نوفمبر 2016.

K. Al-Saeed/ICRC

العودة إلى الديار

إن وجود الأمان في مسقط رأسهم ليس الاعتبار الوحيد للأشخاص الراغبين في العودة إلى منازلهم، ففقدان الوثائق الرسمية يمكن أيضًا أن يسبب لهم الكثير من المشكلات، خاصة وأن الحكومات قد تضع عقبات بيروقراطية أمام عملية إعادة الإدماج. ويمثل تدمير الممتلكات مشكلة رئيسية أخرى، إذ إن الناس في معظم الحالات لا يملكون المال والموارد اللازمة لإعادة بناء منازلهم.

وتذكر باترسون: "الناس غالبًا يريدون العودة إلى منازلهم بأسرع ما يمكن. ويعتريهم القلق من أن ينتقل شخص آخر للإقامة في شققهم، أو أن يفقدوها". وتضيف قائلة: "العودة إلى منازلهم وسيلة لاستعادة هويتهم. غير أن هذا الأمر يعتمد على ما تبقى لهم منها".

في العديد من المدن المتضررة من النزاع في منطقة الشرق الأوسط، لم يتبق الكثير للعديد من النازحين للعودة إليه. وفي حالة مدينة الرمادي في العراق، أفادت مصادر مختلفة[25] بتعرض نحو 2000 مبنى و 48 ألف منزل لدمار جزئي أو كلي. بالإضافة إلى ذلك، دُمرت أجزاء أساسية من البنية التحتية، مثل الجسور، والمستشفى الرئيسي، ومحطة القطار، ومحطة لمعالجة المياه كانت تخدم أكثر من نصف سكان الرمادي.

رجل مسن يدخل منزله في الموصل، وقد دُمر في الاشتباكات الأخيرة. وغالبًا ما يجد المسنون مشقة شديدة عندما يفرون من ديارهم. في كثير من الأحيان، يكونون ضعفاء لدرجة تمنعهم من ترك المدينة، حتى عندما يشتد القتال. آذار/ مارس 2017.

A. Liohn/ICRC

خسارة تدريجية

يفقد بعض الناس كل شيء دفعة واحدة، غير أن الخسائر التدريجية الناجمة عن النزوح يمكن أن تكون مدمرة بالقدر نفسه. وفي كثير من الأحيان، من شأن النزوح المتكرر والطويل الأمد أن يستنزف موارد أولئك الذين يتمكنون، في البداية، من تثبيت أوضاعهم واستعادة بعض الأصول، غالبًا بمساعدة من الأصدقاء أو الأقارب.

وجمال* وأسرته مثال على هذا. ففي عام 2015، شُنت غارات جوية مكثفة ووقع قتال عنيف في مسقط رأس جمال في ساقين، في ريف صعدة في اليمن، الأمر الذي أجبره وزوجته وأطفالهما الثمانية على الفرار إلى إحدى ضواحي العاصمة صنعاء. وقبل اندلاع الحرب، كان لدى جمال، الذي يبلغ من العمر 50 عامًا حاليًا، وظيفة مستقرة كعامل في إحدى المزارع. ولكن منذ فراره من منزله، لم يتمكن من العثور على عمل، وتراكمت عليه الديون. وأصيب اثنان من أطفاله بالسرطان.

ويستميت جمال من أجل إعالة أسرته، التي لا تتمكن من الحصول على وجبات الطعام بانتظام لأنها لا تملك المال لشرائه.

يقول جمال: "لم يتبق لنا شيء. لقد بعت ذهب زوجتي، وكل ما نملك. لا يمكنني تحمل تكلفة إدخال طفلي المستشفى. نحن نعيش في منزل، ولكن لم يعد لدي المال لدفع الإيجار بعد الآن. ولم يذهب أبنائي إلى المدرسة على الإطلاق في العام الماضي [عام 2016] بسبب الوضع الذي نحن فيه".

حلب. طفل يشرب المياه من إحدى آبار المياه التي أصلحتها اللجنة الدولية. آب/ أغسطس 2015.

أنظمة المدن المعقدة

"هدفنا: ضمان استمرار حياد المياه"

الحروب في المدن وحولها تعطل شبكة الخدمات التي يحتاجها السكان من أجل البقاء على قيد الحياة

واجه حامد*، وهو فني في محطة لمعالجة المياه في الضواحي الجنوبية الشرقية من حلب، العديد من التحديات في أثناء العمل للحفاظ على استمرار الخدمات المقدمة للمواطنين على جميع أطراف النزاع في سورية.

يقول حامد: "في أثناء الأزمة، كان علينا أن نعمل في محطتي مياه [و] اعتدنا عبور خطوط المواجهة أسبوعيًا، بالتنسيق مع الشركاء العاملين في المجال الإنساني والأطراف المعنية على الأرض".

وقد استولت مجموعات مسلحة على إحدى محطتي المياه لفترات طويلة، ونهبتها للحصول على الأسلاك النحاسية. ويقول حامد: "كان هدفنا هو الحفاظ على استمرار عمل مرفق المياه، وضمان استمرار حياد المياه". ويضيف: "لقد واجهنا لحظات مروعة، شعرنا فيها وكأننا جزء من أحد أفلام الرعب". وفي أثناء إحدى المهام البالغة الخطورة- في منطقة تسيطر عليها ثلاثة أطراف مختلفة في النزاع- اندلعت الاشتباكات، وأصيب حامد بطلق ناري ونقل إلى المستشفى.

** اسم مستعار*

المياه يجب أن تتدفق، حتى في أثناء الحرب

أصبحت الهجمات التي تؤثر على الأعيان التي لا غنى عنها لبقاء السكان المدنيين على قيد الحياة، والحالات الأخرى لتعطلها عن العمل- على سبيل المثال من جراء الأضرار التي تلحق بمحطات نقل المياه، أو خطوط الكهرباء، أو أنابيب الصرف الصحي تحت الأرض بسبب الأسلحة المتفجرة القوية- شائعة للغاية في حروب المدن اليوم.

وبالإضافة إلى تذكير جميع الأطراف المتحاربة بالتزامها باحترام هذه الأجزاء الحيوية من البنية التحتية وعدم إلحاق الضرر بها، تعمل اللجنة الدولية وشركاؤها من الجمعيات الوطنية للصليب الأحمر والهلال الأحمر مع هيئات المياه المحلية، ومقدمي الخدمات من أجل تعزيز خدمات المياه، والكهرباء، والصرف الصحي القائمة بحيث يمكنها تحمل نوعية المعارك الممتدة التي تشهدها مدن الشرق الأوسط اليوم.[26]

وفي هذا الصدد، يقول مايكل تلحمي، منسق اللجنة الدولية لعمليات المياه والإسكان في منطقة الشرق الأدنى والأوسط: "لتجنب مثل هذه الأزمات، نحن بحاجة إلى خدمات يمكنها الاستجابة لآثار الصدمات والضغوط الناجمة عن النزاع واستيعابها- والتعافي بأسرع ما يمكن عندما تسمح الظروف بذلك".

في كثير من مدن الشرق الأوسط، غالبًا ما تكون مصادر المياه ومحطات ضخ المياه خارج حدود المدينة أو تنتشر حسب النطاق الجغرافي، وتمر خطوط المياه المهمة عبر مناطق يسيطر عليها مقاتلو المعارضة المسلحون. ويجب إجراء تقييمات تفصيلية للمخاطر قبل التوسع في عدد مصادر المياه، وذلك بغية تقليل خطر قطع إمدادات المياه عن أي جزء من المدينة إذا تغيرت خطوط المواجهة أو تعرضت المعدات لأضرار. ففي تعز على سبيل المثال، تولت اللجنة الدولية، بالتعاون مع هيئة المياه المحلية، إصلاح الآبار القديمة، وحفر آبار جديدة داخل المدينة وخارجها، توفر الآن نحو 90 في المائة من مياه الشرب في المدينة.

ومع بدء تصاعد حدة القتال هذا العام في مدينة الحديدة الواقعة غرب اليمن على ساحل البحر الأحمر، عملت اللجنة الدولية مع هيئات المياه المحلية لزيادة عدد الآبار في جميع أنحاء المدينة حتى إذا ما قُطعت إمدادات المياه، يتاح للسكان المحليين مصدر بديل. وقد طُلبت قطع مهمة من المعدات- والتي غالبًا ما تكون متخصصة للغاية- بصورة مسبقة، إذ قد يستغرق تسلم المكونات الجديدة وتركيبها في الأنظمة القديمة عدة أشهر. وتكون تلك الأشهر حرجة بالنسبة للأشخاص الذين يحتاجون المياه النظيفة وخدمات الصرف الصحي. ومن الأهمية بمكان اتخاذ إجراءات استباقية في وقت مبكر، لأن توسيع خدمات الإمداد بالمياه بعد نشوب القتال في المدينة يمكن أن يكون أمرًا بالغ الصعوبة.

A. Al Kawkabani/ICRC

مهندس اللجنة الدولية وموظف هيئة المياه المحلية يوصلان خط أنابيب المياه الرئيسي إلى إحدى مناطق مدينة صنعاء اليمنية. كانون الأول/ ديسمبر 2016.

بيئة تتعرض لضغوط

مما يدعو للأسى أن هذه النزاعات والجهود الإنسانية لاستعادة الخدمات تأتي بعد عقود عديدة من تناقص إمدادات المياه. وتواجه منطقة الشرق الأوسط بأكملها مجموعة من التحديات الكبرى وهي قِدَم البنية التحتية، وتسرب المياه نتيجة لتآكلها، والجفاف، وتقلص طبقات المياه الجوفية وانخفاض منسوبها، وتصحر الأراضي الصالحة للزراعة، وزيادة ملوحة التربة.[27]

ويوضح الخبراء أن حفر المزيد من الآبار وسحب المياه في الحالات الطارئة ليس حلًا مستدامًا. ويقول موريزيو بيسلج، رئيس فريق اللجنة الدولية المعني بشؤون المياه والإسكان في حلب: "إن الاستنزاف التدريجي لمستويات المياه في هذه الآبار واضح بالفعل ومثير للانزعاج الشديد".

ويجب أن تراعي استجابة الوكالات والمنظمات الإنسانية الدولية مجموعة من القضايا المعقدة، وهي طبيعة الخدمات الأساسية في المدن التي تكون مترابطة ومتعددة الأوجه، والأثر التراكمي المباشر وغير المباشر للنزاع، الذي يتفاقم نتيجة الانتهاكات المتكررة للقانون الدولي الإنساني، وأمن العاملين، والوصول إلى المحتاجين، والسياسات المتعلقة ببيئات التشغيل ذات الأوضاع الأمنية الخاصة، والتمويل الذي لا يتماشى مع مدة الاحتياجات وحجمها.[28]

على الرغم مما تتسم به المهمة من تعقيد، ومدى الضرر، والأخطار والمصاعب، فإن حامد*، الذي يعمل في هيئة المياه في حلب، على ثقة من أن جهوده من أجل الحفاظ على تدفق المياه سوف تؤتي ثمارها. ويقول: "على مر التاريخ، نجت هذه المدينة من العديد من الأزمات والزلازل، وتكيفت مع مواقف بالغة الصعوبة". ويضيف: "سوف تزدهر حلب مرة أخرى، وسيُعاد بناؤها".

** اسم مستعار*

أحد مهندسي اللجنة الدولية يفحص محرك مولد كهربائي في الحديدة، مستشفى الثورة. أيار/ مايو 2016.

ICRC

F. Al-Homaid/ICRC

سكان محليون يجلبون المياه من نقطة تعبئة مياه وفرتها اللجنة الدولية بالقرب من تعز. آب/ أغسطس 2016.

المدينة السياحية، العراق. مواطنون يملأون زجاجاتهم. قامت اللجنة الدولية بإصلاح وحدة ضخ المياه وترشيحها في المدينة، التي تضررت من جراء القتال. كانون الثاني/ يناير 2015.

تسهم المدن إسهامات هائلة في الاقتصادات الوطنية والإقليمية- إذ تدعم أنشطة الزراعة، والصناعة، والتجارة- ولكنها تعتمد أيضًا على موارد خارجية. ويأتي الجزء الأكبر من المواد الغذائية التي يستهلكها سكانها من مزارع على أطرافها أو من أماكن أبعد من ذلك بكثير. وعادة ما يأتي الوقود اللازم لاستمرار تشغيل السيارات، والشاحنات، والمولدات الكهربائية، وأنظمة التدفئة من آبار النفط ومصافيه التي تكون بعيدة عن المراكز السكنية. وغالبًا ما تكون محطات الكهرباء، وطرق الإمداد، ومحطات معالجة المياه والصرف الصحي أيضًا خارج حدود المدينة.

ومن ثم، فإنه حتى المعارك التي تدور بعيدًا عن المدن قد يكون لها آثار هائلة على السكان. وعندما يمتد القتال إلى المدينة نفسها، ربما تقطع خطوط المواجهة بين الأطراف المتقاتلة خطوط الكهرباء، والمياه، والصرف الصحي التي توزع هذه الخدمات في جميع أنحاء المدينة، وقد تقع شبكات الكهرباء والمياه العديدة والمترابطة تحت سيطرة فصائل مسلحة مختلفة. ولذلك، فإن الحفاظ على حياة الناس وصحتهم في ظل نزاع ممتد مهمة بالغة التعقيد.

موجات الصدمة

الآثار المدمرة لاستخدام الأسلحة المتفجرة التي لها تأثير واسع النطاق في حروب المدن

في النزاعات التي تشهدها منطقة الشرق الأوسط في الوقت الراهن، غالبًا ما تستخدم الأسلحة المتفجرة التي لها تأثير واسع النطاق في المناطق المأهولة بالسكان، ويترتب على ذلك عواقب وخيمة على المدنيين والبنية التحتية المدنية.

وقد يؤثر السلاح المتفجر على منطقة شاسعة بسبب اتساع دائرة التدمير، أو عدم دقة نظام إيصال السلاح إلى الهدف، أو لأنه يؤدي إلى نثر الكثير من الذخائر على مساحة واسعة. ومن أمثلة هذه الأسلحة القنابل الكبيرة الحجم والصواريخ، بما فيها الأسلحة "الذكية" الموجهة بالليزر، ومنظومات أسلحة الإطلاق غير المباشر، مثل قذائف الهاون غير الموجهة، والصواريخ، وأسلحة المدفعية، وقاذفات الصواريخ المتعددة الفوهات، وأنواع معينة من العبوات الناسفة المصنعة يدويًا. ولا يقع القتل بسبب انفجار هذه الأسلحة فحسب، بل أيضًا من جراء تطاير أجزاء من غلاف الذخيرة أو الشظايا الثانوية في جميع الاتجاهات.[29]

في حروب المدن، تجري المعارك في الأحياء التي يختلط فيها المقاتلون بالمدنيين. وحتى عندما توجه الأسلحة المتفجرة التي لها تأثير واسع النطاق إلى هدف عسكري، فمن المرجح أن يكون لها آثار عشوائية في المناطق المأهولة بالسكان. ولأن الأهداف العسكرية المشروعة تتداخل مع المدنيين، ومع منازلهم، ومستشفياتهم، ومدارسهم، فإن لهذه الأسلحة عواقب وخيمة على السكان المدنيين.

T. Glass/ICRC

مبنى مدني مدمّر جزئيًا في مدينة تعز التي مزقتها الحرب. كانون الأول/ ديسمبر 2016.

ما وراء منطقة الإصابة

إن استخدام الأسلحة المتفجرة التي لها تأثير واسع النطاق يمكن أن يترتب عليه كثير من العواقب الطويلة الأجل على المدينة تتجاوز الخسائر البشرية والدمار داخل منطقة الإصابة المباشرة. وعندما يلحق الضرر بالبنية التحتية الأساسية المدنية أو تتعرض للتدمير، فإن الخدمات الأساسية تتعطل، ما يؤدي إلى إلحاق أضرار جسيمة بعيدة المدى بالمدنيين، بما في ذلك الوفاة والإصابة.

إن ما يحدثه القصف المتواصل والمكثف من دمار لهو سبب رئيسي لفرار السكان من مدنهم. ويعني التدمير شبه الكامل لبعض أحياء المدن أن الكثير من الأشخاص الذين فروا من مدن مثل حمص، والرمادي، وحلب، وتعز لن يتبقى لهم ما يعودون إليه- حتى وإن توقف القتال.

هذه هي بعض الأسباب التي تجعل اللجنة الدولية والحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر تدعوان أطراف النزاعات المسلحة إلى تجنب استخدام الأسلحة المتفجرة التي لها تأثير واسع النطاق في مناطق مكتظة بالسكان.[30]

الأسلحة الكيميائية

على الرغم من الحظر المطلق للأسلحة الكيميائية، تظل المزاعم المتعلقة باستخدامها متكررة بشكل كبير

إن المزاعم المتكررة باستخدام عوامل الحرب الكيميائية واستخدام الكلور كسلاح كيميائي في العراق وسورية تثير قلقًا بالغًا. ويحظر القانون الدولي الإنساني الأسلحة الكيميائية حظرًا مطلقًا، ويجب على جميع الأطراف الامتناع عن استخدامها. وتتابع فرق اللجنة الدولية هذه المسائل عن كثب، وتذكر جميع أطراف النزاعات بهذا الحظر المطلق وبالتزامها بالامتثال للقانون الدولي.

والحقيقة أن العوامل الكيميائية السامة أو مسببات الأمراض البيولوجية لا تحدث ضررًا محتملًا أو قد تودي بحياة الشخص الذي يقع في نطاق تأثيرها المباشر فحسب، بل يمكن أيضًا أن تصيب العاملين في مجال الصحة، وسيارات الإسعاف، وغرف العمليات، وحتى المستشفيات بأكملها بالتلوث، ما يجعل هذه المرافق الحيوية عديمة الجدوى في أشد الأوقات احتياجًا إليها. وهذه المخاوف ليست افتراضية، وذلك على نحو ما اتضح مؤخرًا من الاستخدام الواضح لأحد العوامل الكيميائية السامة في الموصل، حيث نقل 15 مريضًا- من بينهم أطفال- إلى المستشفى بعد أن ظهرت عليهم أعراض إكلينيكية تتفق مع أعراض التعرض لعامل كيميائي مسبب للحروق والبثور.[31]

وقد دفع تزايد تواتر النزاعات في المدن المنظمات الإنسانية إلى إعادة التفكير في أساليبها لمساعدة المدن على الاستعداد لمواجهة حالات العنف الشديد، والتخفيف من حدة المخاطر وتحسين تلك الأساليب. وفي العراق وأوكرانيا، تتمثل إحدى الخطوات التي اتخذتها وحدة التلوث بالأسلحة التابعة للجنة الدولية في تحديد المواقع الصناعية وغيرها من الأماكن التي يمكن تخزين مواد كيميائية سامة أو مواد خطرة أخرى فيها. ويمكن أن تكون هذه المعلومات بالغة الأهمية عند الاستعداد لمواجهة احتمال وقوع خسائر بشرية كبيرة من جراء قصف المرافق الصناعية الواقعة قرب مناطق حضرية مأهولة بالسكان بصورة متعمدة أو غير مقصودة.

وفي العراق أيضًا، تعمل وحدة التلوث بالأسلحة التابعة للجنة الدولية مع المستشفيات والمراكز الصحية لمساعدتها على تعزيز قدراتها على التعامل مع الخسائر البشرية الكبيرة الناجمة عن استخدام الأسلحة المتفجرة التقليدية، أو إطلاق عوامل كيميائية سامة. وتوفر الوحدة التدريب والمعدات لمرفقين صحيين بالقرب من الموصل للتعامل مع المرضى الملوثين بالمواد الكيميائية السامة وعوامل الحرب الكيميائية.

خبراء اللجنة الدولية في مجال التلوث بالأسلحة يقومون بتدريب العاملين في مركز صحي بالقرب من الموصل بالعراق على كيفية علاج الأشخاص الذين تعرضوا لعوامل كيميائية أو بيولوجية بأمان. تشرين الثاني/ نوفمبر 2016.

إرث قاتل

الأسلحة غير المنفجرة تواصل حصد الأرواح حتى بعد انتهاء القتال

تشير التقديرات إلى أن نحو 10 إلى 15 في المائة من القنابل، والصواريخ، والذخائر العنقودية الصغيرة المستخدمة في النزاعات لا تنفجر عند إصابتها أهدافها. وبدلًا من ذلك، فإنها تظل مدفونة في الأرض أو وسط الأنقاض، ما يعرض السكان الذين يعيشون في مناطق النزاع في المدن لخطر داهم.

وتهدد هذه الأسلحة غير المنفجرة أيضًا سلامة الأشخاص الذين يشاركون في جهود الإنقاذ العاجلة، أو في العمل على المدى الأطول لإعادة تشغيل الخدمات، أو جعل الطرق صالحة للمرور والمباني صالحة للسكن.

ولهذا السبب، تعمل وحدة التلوث بالأسلحة التابعة للجنة الدولية، حيثما أمكن ذلك- في العراق على سبيل المثال- على العثور على الأسلحة غير المنفجرة وإزالتها وتدميرها. وهي تتعاون أيضًا مع الشركاء المحليين، بما فيهم الجمعيات الوطنية للصليب الأحمر والهلال الأحمر، بغية توعية المواطنين بخطورة هذه الأسلحة.

إن إعادة إعمار أحياء المدن الملوثة بالأسلحة غير المنفجرة على المدى الأطول أمر محفوف بالمخاطر وباهظ التكلفة، وذلك نظرًا إلى الحرص الواجب لضمان أن تكون جميع المناطق آمنة قبل إحضار معدات إزالة الأنقاض.

أحد موظفي وحدة التلوث بالأسلحة التابعة للجنة الدولية يمشط الأرض بحثًا عن قنابل غير منفجرة حول محطة مياه بالقرب من الموصل بالعراق. شباط/ فبراير 2017.

T. Barham/ICRC

موظفان تابعان للجنة الدولية يقيمان الدمار الناجم عن النزاع الدائر في صعدة، تموز/ يوليو 2015.

وقد تضررت مدينة صعدة اليمنية ضررًا بالغًا من جراء استخدام الذخائر العنقودية، ولُوّثت أرضها بمخلفات الحرب القابلة للانفجار تلوّثًا شديدًا. وعكست المدينة على إثر ذلك صورة نموذجية للإرث القاتل الذي تمثله هذه الأسلحة في أجزاء مختلفة من البلد، وهو الإرث الذي تضاءلت أمامه قدرة المركز التنفيذي للتعامل مع الألغام- اليمن على الاستجابة وتطهير الأرض من هذه المخلفات بأمان. فلقد قُتل العديد من أخصائيي إزالة الألغام في حوادث ذات صلة في الأشهر الأخيرة. ويمثل عدد الأسلحة المستخدمة، بالإضافة إلى التعقيد التقني لتلك الأسلحة في كثير من الأحيان، تحديان كبيران وطويلا الأجل، ويتطلبان تحركًا عاجلًا ومنسّقًا.

صبي يجلس وسط أنقاض منزل أسرته في اليمن. تموز/ يوليو 2016.

الأثر العاطفي، والنفسي، والنفس- اجتماعي

"رأيتني وقد أصابني الانهيار"

بخلاف الإصابات الجسدية، يُخلّف النزاع الممتد في المدن ندوبًا نفسية حقيقية ودائمة

يمكن أن يستمر الأثر العاطفي، والنفسي، والنفس- اجتماعي للحدث الصادم لفترة طويلة، بل ربما يمتد طوال العمر في بعض الحالات. وبالنسبة لمن حاصرتهم النزاعات الممتدة في المدن، فإن أحداث العنف المروع أو الوحشية قد تصبح حقيقة يتعين عليهم تحملها كل يوم تقريبًا، وأحيانًا لسنوات عديدة.

ولأناس كُثر مثل محمود* وأم علي*، فإن تلك الصدمة يليها استمرار عدم الاستقرار وانعدام الأمن المصاحبان للنزوح الذي يطول أمده. وقد غادر الزوجان، برفقة طفليهما، منزلهما فى مدينة تعز اليمنية بعدما تعرضت للدمار من جراء القتال.

بعد انتقالهم إلى مدينة صنعاء، يكافح الزوجان من أجل توفير حتى أبسط الأشياء- الطعام، والملبس، والتعليم- لطفليهما. يقول محمود: "أنا متأثر نفسيًا، وجسديًا، ومعنويًا". ويضيف: "لقد تغير كل شيء في حياتي. عندما يحتاج طفلَيَّ أي شيء، وليس بوسعي توفيره، أشعر بالإحباط. لقد مت مرات ومرات".

وترى أم علي أيضًا تأثير الحرب على الصحة النفسية لجميع أفراد الأسرة. تقول: "دُمر ولداي تمامًا"، مضيفة أن ابنها الأكبر لم يعد يذهب إلى المدرسة بسبب حالته النفسية. وتضيف قائلة: "كان زوجي يعمل، ولكن بسبب الحرب، أصبح بلا عمل. وهو الآن يعاني متاعب نفسية [و] يضرب أبناءه".

عندما يفقد الناس الكثير، يشعرون في كثير من الأحيان أنهم يُسلبون شعورهم بقيمة الذات والرفاه. سامي*، هو شاب يبلغ من العمر 27 عامًا، ويعيش اليوم في بيروت، لبنان حيث يكافح من أجل أن ينعم بحياة طبيعية. ويقول: "كل ما أريده هو أن أكون بخير. من الصعب أن يعيش المرء حياة

فتاة صغيرة في مخيم ديبكة للنازحين بسبب القتال في الموصل، العراق. تشرين الثاني/ نوفمبر 2016.

طبيعية بعد أن خاض كل تلك الأهوال. لقد رأيت مدينتي تحتضر، ورأيتني وقد أصابني الانهيار. لا أعلم إذا ما كنت سأعيش حياتي بصورة طبيعية بعد الآن، لكنني أتمنى ذلك".

كثيرًا ما يُظهر المدنيون والمجتمعات المحلية قدرة هائلة على الصمود أمام أصعب الظروف والتكيف معها. غير أن هذا الأمر بالغ الصعوبة وسط نزاع مستمر؛ فالقلق المستمر بشأن سلامة أحبائهم، والخوف الدائم بشأن توفر الغذاء وغيره من الضروريات الأساسية يؤدي إلى تفاقم جميع الصعوبات الشخصية المرتبطة بهذا الوضع المؤلم. وتتسم ردود أفعال بعض الناس بالغضب أو اليأس، في حين يستسلم البعض الآخر بهدوء لظروفهم. ويسود الحزن الشديد، وكذلك الخوف.

بينما يتمكن معظم الناس من مواصلة حياتهم والتعامل مع المحن التي يكابدونها، يعاني آخرون صدمة نفسية تشل قدراتهم. وهناك عدد من العوامل التي تميز الأضرار النفسية الناجمة عن حروب المدن. فبسبب قرب القتال واستمرار دويّ الانفجارات، غالبًا ما تمر بالناس في المناطق المكتظة بالسكان أحداث مروعة يتعرض فيها كثير منهم للإصابة أو القتل. وقد يؤدي عدم وجود مناطق "آمنة" حيث يستطيع الناس التقاط الأنفاس، وتوقف سير الحياة العائلية والاجتماعية، وغياب الخدمات الأساسية مثل الرعاية الصحية أو التعليم إلى تفاقم الأثر النفسي.

وفي الوقت نفسه، ونظرًا إلى حجم الاحتياجات المحتملة، فإن النظم الصحية المحلية في البلدان المتضررة من النزاعات، فضلاً عن البلدان التي تستقبل الفارين من النزاعات ليس لديها في كثير من الأحيان القدرة على تحديد الدعم المناسب للأشخاص ذوي الاحتياجات المتصلة بهذه الأوضاع أو تلبيتها. وفي جميع المدن تقريبًا التي تشهد نزاعات، أدى انهيار الاقتصادات المحلية أو تزايد الاحتياجات إلى التأثير أيضًا على خدمات الصحة النفسية. وعادة ما تكون هذه الخدمات ضعيفة الموارد في أفضل الأوقات، غير أن النزاعات تزيد من حدة المشكلة إذ يكون المتخصصون من بين أولئك الذين يضطرون إلى الفرار من القتال. وتشارك مجموعة من الجهات الفاعلة الحكومية وغير الحكومية من أجل المساعدة على سد هذه الفجوة. وتعمل المنظمات الإنسانية، بما في ذلك اللجنة الدولية وشركاؤها من الجمعيات الوطنية للصليب الأحمر والهلال الأحمر، على توسيع نطاق الخدمات التي تقدمها. ولكن هناك حاجة إلى المزيد من الاستثمارات في هذا المجال.

أطفال يكبرون في ظل الأزمة

الأطفال من الفئات المستضعفة بصورة خاصة، غير أن هناك القليل من الخدمات- مثل تقديم المشورة أو العلاج- لمساعدتهم على التعامل مع مشاعرهم. وجميع عناصر الطفولة الطبيعية، مثل المدرسة واللعب مع الأصدقاء، إما مفقودة أو توقفت إلى حد بعيد. يقول أحد سكان حلب: "لم تعش ابنتي البالغة من العمر 11 عامًا، وابني البالغ من العمر 5 سنوات طفولة حقيقية". ويضيف: "لقد مرا بتجارب مروعة. يعاني ابني حموده نوبات هلع من حينٍ لآخر. وعادة ما يركض ويختبئ متى سمع أصواتًا عالية، حتى وإن كان صوت إغلاق الباب".

إن عدم توفر التعليم، وندرة فرص العمل، وعدم إمكانية ممارسة الأنشطة الثقافية والترفيهية- مثل الرياضة- وعدم توفر العلاج للشباب المضطربين الذين يقتربون من مرحلة البلوغ، كل هذا يُحدث ضغطًا نفسيًا يمكن أن يجد له متنفسًا في الانضمام إلى العصابات، أو ممارسة العنف الجنسي وغيره من أشكال العنف، وغير ذلك من السلوكيات غير المشروعة.

ويتجرع الأشخاص الذين يتعرضون لفقد أكثر من حبيب أو اختفائهم صنفًا آخر من العذاب. على سبيل المثال، فقدت ماغي أندريوتي، من سكان بيروت، اثنين من أبنائها إبان الحرب الأهلية اللبنانية، أحدهما بسبب انفجار صاروخ، والآخر لإصابته بمرض كان يمكن أن يبرأ منه، ولكنه توفي بسبب القتال الذي حال دون نقله إلى منشأة طبية في الوقت المناسب. ولكن عذاب عدم معرفة مصير ابنها الثالث يتجاوز الألم الذي تشعر به لموت أخويه. فقد أصبح في عداد المفقودين في عام 1978، في أثناء القتال في بيروت، ولم يعد منذ ذاك الحين. لم يكن عمره يتجاوز 16 عامًا آنذاك.

تقول: "سيجافي النوم مقلة الأم التي مات ابنها في البداية، لكنها ستستطيع النوم بعد حين. أنا أخبرك عن هذا، فقد مات لي ولدان. لكن الأم التي لا تعرف مصير ابنها لن يعرف النوم يومًا طريقه إلى عينيها أبدًا. أنا أخبرك عن هذا، فلدي ولد مفقود".

رجل وابنته يقفان أمام منازل متضررة في أحد أحياء صنعاء، اليمن. أيار/ مايو 2015.

والواقع أن التحسينات التي تُدخَل على حياة الناس اليومية يمكن في أحيان كثيرة أن تخفف من آلامهم العاطفية والنفسية، على سبيل المثال، عندما يحصلون على إجابات شافية بشأن مصير أحبائهم المفقودين، أو عند تلبية بعض احتياجاتهم الأساسية من مأوى، أو غذاء، أو مياه نظيفة، أو رعاية صحية.

على سبيل المثال، كان أبو هاني- وهو بائع يعمل على عربة من مدينة حمص القديمة في سورية- يعيش بالفعل في قلق دائم، ويتعايش مع الكفاح اليومي للعثور على الطعام في مدينة تحت الحصار، عندما تحققت أسوأ مخاوفه؛ إذ سقط صاروخ على منزل أسرته وقتل زوجته وطفله الرضيع.

وقد كسرت ساقه من جراء الانفجار ولم يعد قادرًا على العمل. وبالإضافة إلى التعامل مع حالة الرعب في ذلك اليوم، والأسى على فقدان زوجته وطفله الرضيع، أصبح أبو هاني اليوم المسؤول الوحيد عن رعاية بناته الثلاث. ويقول: "أنا بدون عمل حاليًا لذا فإننا نعتمد على إحسان الآخرين".

وقد تعرض أبو هاني لضغط نفسي شديد من جراء كل هذه الأحداث. ومع ذلك، عندما تمكنت بناته أخيرًا من العودة إلى المدرسة، على سبيل المثال، راوده شعور بالأمل. وكثيرًا ما لا تكون هذه الحلول مجدية إلا بعد انتهاء القتال، عندما يتحقق للأسر الشعور بالأمان مرة أخرى، ويمكن للناس أن يبدأوا حقًا إعادة بناء حياتهم.

يقول أبو هاني: "حتى اليوم، تستيقظ بناتي في الليل خائفات، يردن أمهنّ. إنهن يفتقدنها. جميعنا نفتقدها. ولكنني في غاية السعادة لرؤية بناتي وهن يكبرن، ويذهبن إلى المدرسة، ويستعدن حياتهن الطبيعية. اثنتان منهن تحضران دروسًا في التمثيل. وقبل بضعة أيام، شاركتا في مسرحية. ومن أجلهن لا بد أن يجري نهر الحياة".

** أسماء مستعارة.*

M. Kaer/ICRC

"سيجافي النوم مقلة الأم التي مات ابنها في البداية، لكنها ستستطيع النوم بعد حين. أنا أخبرك عن هذا، فقد مات لي ولدان. لكن الأم التي لا تعرف مصير ابنها لن يعرف النوم يومًا طريقه إلى عينيها أبدًا. أنا أخبرك عن هذا، فلدي ولد مفقود".

- ماغي أندريوتي تحمل صورة ابنها المفقود

"لن أنسى، لا يمكنني ذلك أبدًا. ولكني سأحاول أن أسامح"

تقدم الحرب الأهلية اللبنانية التي دارت رحاها في المدن بصفة أساسية العديد من الدروس المستفادة بشأن تكلفة النزاعات في المناطق الحضرية المكتظة بالسكان والتي تتسم بالتنوع الشديد. وثمة درس أساسي هو أن إعادة إحياء المجتمعات الحضرية يتطلب أكثر من مجرد إعادة بناء المباني.

"الحرب تحوّل المجتمع، ولكن بدلًا من تعزيز التنمية والتقدم، تدفع البلدان الثمن؛ إذ تتعرض المدن للتدمير، والأحياء للتقسيم، والاقتصاد للانهيار، ولكل عمل يُنفّذ في أثناء القتال تكلفة ... لا يمكنك الحديث عن التفاؤل بُعيد الحرب، ولكن عن دفع هذه الفاتورة الباهظة. إن التعلم من التجارب السابقة، مثل تجارب لبنان، لهو أمر بالغ الأهمية للتعامل مع النزاعات في سورية، والعراق، واليمن".

- مقابلة مع البروفيسير فواز طرابلسي، مؤرخ وقيادي سياسي لبناني سابق، ومؤلف عدة كتب عن الثقافة والسياسة والتاريخ العربي، بما في ذلك كتاب "تاريخ لبنان الحديث"

E. Winiger/ICRC

يمكن إعادة بناء المباني وحتى أحياء بأسرها بعد انتهاء النزاع، إلا أن النسيج الاجتماعي للمدينة، وذاكرتها الجمعية، وشبكة العلاقات التي جعلتها تنبض بالحياة قد لا تُستعاد بالكامل أبدًا، ذلك أن الكثير من الناس سيكونون قد رحلوا عنها أو رحلوا عن العالم، والعلاقات بين المجموعات المختلفة تكون قد تغيرت.

ألحقت الحرب الأهلية اللبنانية- التي دارت رحاها على مدى 15 عامًا وانتهت فعليًا بعقد اتفاق سلام في عام 1989- أضرارًا جسيمة بالعديد من المناطق المأهولة بالسكان، ولا سيما في بيروت. وأدت الحرب أيضًا إلى تقسيم سكان المدينة المتنوعين وتفتيتهم بطرق لا يزال أثرها حاضرًا حتى اليوم. فما الذي يمكننا أن نتعلمه من لبنان عن تخفيف المعاناة بعد النزاع، والمساعدة في إعادة بناء المجتمعات الحضرية التي مزقتها الحرب؟

إن الذين درسوا أوضاع لبنان بعد الحرب يقولون إن إصلاح ما أفسدته الحرب يستلزم استعادة التماسك الاجتماعي، وإعادة بناء المجتمعات المحلية، ويجب بذل هذه الجهود على وجه السرعة، حتى على الرغم من احتمال تقويضها من جراء التوترات وانعدام الثقة التي تظهر على السطح أو التي لم تُحل، والآثار المؤلمة والطويلة الأجل للحرب.

ويوضح الخبراء أنه يجب أن تضمن هذه الجهود أن الناس الذين لاذوا بالفرار يشعرون أن الأوضاع أصبحت آمنة للعودة، وأنهم موضع ترحيب بغض النظر عن انتماءاتهم السياسية، أو طبقاتهم الاجتماعية، أو معتقداتهم الدينية. ويمكن للمؤسسات الرئيسية، مثل الجهات المعنية بالتعليم، أن تساعد على تعزيز التماسك الاجتماعي، وبطبيعة الحال فإنه يمكنها أيضًا أن تديم الانقسامات. ومن المهم أيضًا إشراك المجتمع المدني والمجتمعات المحلية. ويجب التعامل مع عملية إعادة إدماج المقاتلين السابقين في المجتمع في وقت مبكر.

التجربة اللبنانية

كان للحرب الأهلية اللبنانية، بسبب طول مدتها وشدتها، أثر هائل على الاقتصاد الوطني. فقد تعرضت البنية التحتية للبلاد، وإنتاجها الزراعي، وقاعدتها الصناعية[32] إلى أضرار جسيمة، وأدت هجرة مئات الآلاف من اللبنانيين المتعلمين والمهرة إلى إضعاف الكثير من المهن الرئيسية.[33]

وتتباين أعداد النازحين، أو الجرحى، أو القتلى تباينًا كبيرًا،[34] غير أن الأثر الديموغرافي، والاجتماعي، والنفسي الهائل للنزاع لا مراء فيه. وقد أثرت الحرب على المدن والمناطق الريفية على حد سواء، إلا أن بيروت كانت واحدة من مسارحها الرئيسية. وتشبه عسكرة المجتمع،

T. Gassmann/ICRC

وانتشار الميليشيات والأطراف المتحاربة، وقربها من المناطق أو المجتمعات المدنية- لا سيما في المدن- إلى حد كبير ما نشهده اليوم في حروب المدن الأخرى في منطقة الشرق الأوسط.

وحتى يومنا هذا، بعد ما يربو على عقدين ونصف العقد من انتهاء القتال، فإن الانتهاكات التي ارتكبتها جميع الأطراف، والأرواح التي أُزهقت، والأشخاص الذين أصبحوا في عداد المفقودين، والأضرار التي لحقت بالبنية التحتية للمدن، وتدهور التعليم الشامل للجميع، وعدم وجود تدابير ملموسة لمواجهة الانقسامات العميقة في المجتمع- ما تزال جميعها مصدرًا للاضطرابات في لبنان.

تجريد "الآخر" من صفاته الإنسانية، وتعميق الانقسامات

يتمثل أحد أوجه التشابه بين التجربة اللبنانية والنزاعات الحديثة- والذي لا يقتصر على النزاعات في المدن- في مدى سهولة تعمد مختلف الأطراف تجريد خصومهم من الصفات الإنسانية على أسس أيديولوجية، أو سياسية، أو عرقية، أو دينية. ويظهر هذا الأمر بشكل كبير في المدن، التي عادة ما يكون سكانها غير متجانسين على نحو أكبر بكثير من سكان المناطق الريفية، وحيث غالبًا ما تمتزج المجتمعات المحلية ويعيش بعضها على مقربة من بعض.

يوضح طرابلسي: "في أثناء الحرب اللبنانية، لجأت الأطراف المتحاربة إلى استخدام توصيفات طائفية أو دينية ضد بعضها بعضًا". ويضيف: "بدأ وصف المجتمعات المحلية بأنهم "فلسطينيون"، أو "سنة"، أو "شيعة"، أو "دروز". وأصبح الفرد ممثلًا للجماعة، ومن ثم أمكن اختزال الجماعة في فرد. وكانت هناك عمليات خطف وخطف مضاد، واغتيالات، وسيارات مفخخة استهدفت مدنيين وليس أهدافًا عسكرية ... وربما أضعف كل هذا معنويات مقاتلي العدو، ولكنه لم يحقق أية مكاسب عسكرية حقيقية".

وطوال الحرب اللبنانية، ارتبط نزوح الناس ارتباطًا وثيقًا بأعمال العنف الطائفي، وسعت المجموعات المتقاتلة إلى فرض سيطرتها على مناطق جغرافية يمكنها تنظيمها على أسس طائفية أو دينية. وقُسمت المناطق بالفعل، ونُصبت نقاط تفتيش، وفُرضت رسوم على الدخول، وكان تقسيم بيروت إلى شرق بيروت وغربها مثالًا واضحًا على ذلك. واستمرت تلك التقسيمات الجغرافية لسنوات ما بعد الحرب.

وهناك اتجاهات مماثلة اليوم في مناطق أخرى. ففي اليمن على سبيل المثال، أصبحت التوترات بين الجماعات القبلية، وبين الجماعات في الشمال والجنوب أكثر عمقًا بسبب أنماط مماثلة من النزوح. ويقول طرابلسي إنه قبل الحرب، كان عدد من الشماليين يعيشون في عدن، التي تقع في الجنوب. وعندما اندلع العنف، أصبحوا محلًا للاستهداف في محاولة لدفعهم لمغادرة المدينة. وعاد كثير منهم إلى الشمال، وغادر آخرون إلى خارج البلاد.

أدى النزاع في اليمن إلى حلّ عُرى التعايش بين مختلف الجماعات، وتقويض قرب بعضها ماديًا من بعض، فاكتسبت المدن هويات جديدة بسبب التحركات السكانية الأخرى. وغادر العديد من السكان مدنهم إلى الريف حيث لا يزال بوسعهم الحصول على الغذاء عن طريق الزراعة وغيرها من السبل. ومثلت التطورات المتمثلة في تزايد خطر المجاعة، والعوائق أمام مرور البضائع، ووقوع المدن تحت الحصار حافزًا للفرار من المدن. وعلى العكس من ذلك، فر كثيرون آخرون من قراهم من جراء العنف ووجدوا ملاذًا في المدن. انظر القسم الخاص بالنازحين، صفحة 46.

B. Hubschmid/ICRC

على نحو ما تُظهر تجربة لبنان، تصبح عملية إعادة البناء أصعب بكثير إذا لم يجري التعامل مع هذه التقسيمات الجغرافية بمجرد انتهاء القتال. تقول إليزابيث بيكار،[35] الكاتبة والباحثة الرائدة في شؤون الشرق الأوسط إنه بعد التوصل إلى اتفاق سلام، تصبح هذه المجتمعات "المُسيّجة"، إذا جاز التعبير، أكثر تجذرًا عندما يقبل القادة السياسيون فكرة إعادة التأهيل المنفصل.

وتضيف: "هذه عملية لم تتمكن البلاد من التعافي التام منها. وكانت الأولوية هي وقف القتال وقبول أن يعيد كل طرف تجميع أفراده على المنطقة الضئيلة التي يسيطر عليها. وما فعلوه هو مجرد 'تجميد' الوضع وليس معالجته".

وقد تشجع الناس على البقاء بين أولئك الذين يشاركونهم معتقداتهم السياسية وهويتهم الدينية، بدلًا من إعادة إنشاء أحياء مختلطة على نحو ما كان في سنوات ما قبل الحرب. وتقول بيكار: "كان هناك بعض المحاولات لمواجهة ذلك الأمر في البداية، لا سيما من جانب النشطاء الشباب، الذين أرادوا التعلم من الحرب الأهلية والمضي قدمًا. غير أن الساسة المحليين والدوليين لم يلقوا بالًا لندائهم، وسرعان ما ضاعت الفرصة".

بالإضافة إلى عدم وجود حوافز سياسية، تساعد التجارب الأليمة التي تسببها الحرب على تفسير سبب عدم عودة العديد من السكان برغبتهم إلى مدنهم بعد الحرب. ويقول جورج كتانة، الذي يشغل حاليًا منصب الأمين العام للصليب الأحمر اللبناني، والذي كان أحد شباب المستجيبين في حالات الطوارئ إبان الحرب: "هناك العديد من الأماكن التي لن يعود إليها الناس أبدًا". ويضيف: "إنها ليست مسألة وقت أو أجيال، فقد قرروا إعادة بناء حياتهم في أماكن أخرى".

وينبغي أن يتعلم الساسة والمجتمع الدولي من هذا الفشل في التعامل مع العلاقات والثقة وإعادة بنائهما. وستؤتي مبادرات المصالحة في المستقبل ثمارها إذا ما فعلوا ذلك، وسيكون ذلك مفيدًا أيضًا لضمان قدرة الناس على العودة إلى مسقط رأسهم، إذا ما اختاروا ذلك، بغض النظر عن انتماءاتهم السياسية، أو معتقداتهم الدينية.

وتقول بيكار: "إن إعادة بناء المدينة تنطوي على إعادة بناء ما هو أكثر من مبانيها وبنيتها التحتية". وتذكر أيضًا أن المدن يمكن إعادة بنائها انطلاقًا من نيّة صريحة بالمساعدة في إصلاح النسيج الاجتماعي. وتضيف قائلة: "إن التخطيط

الحضري أمر أساسي لاستعادة البنية الاجتماعية للمدينة. وفي لبنان، لم يجر تخطيط حقيقي للمدن بعد الحرب. وفي أغلب الأحيان، تعكس حيازة الممتلكات المصالح المالية للأثرياء، وجرت عملية إعادة الإعمار بغية الحفاظ على الأحياء متجانسة والمجتمعات المحلية مُقسمة، ولكن آمنة".

وفي مدن أخرى تشهد حالة حرب في الوقت الراهن، لا تكون هذه مجرّد مخاوف نظرية، فالتنوع الذي شكل يومًا أحد مقوّمات قوة المدينة ومنعتها يمكن أن ينقلب بسرعة إلى سبب لتصدّعها. فمدينة الموصل العراقية، على سبيل المثال، عُرفت بتنوعها الإثني والديني، وكانت موطنًا لثاني أكبر جامعة في البلاد.

ومنذ عام 2003، طرأ تغير على الكثير من هذه الأمور، ورحل عن المدينة العديد من أولئك الذين شكلوا هذا النسيج الثري. وفي خضم عدم الاستقرار السائد في البلاد، أصبحت العلاقات بين الجماعات العرقية المختلفة تدريجيًا أكثر تعقيدًا، فالعنف المستمر في مناطق مختلفة، والطريقة التي تجري بها الأعمال القتالية كان لهما أثر واضح على التماسك الاجتماعي.

وحسبما ذكر داني مرعي، المنسق الميداني للجنة الدولية في أربيل، العراق، فإن ثمة عدد من المدن آخذ في الانفصال بشكل أكبر، وهي تنظم نفسها على أسس عرقية أو دينية. ويقول إن سير العمليات العسكرية في الموصل الآن، والجهود التي تبذل بعد انتهاء القتال، يمكن أن تكون حاسمة لضمان التعايش السلمي في المستقبل.

وفي بعض مدن الشرق الأوسط، شجعت النزاعات والأوضاع الأمنية التي لا يمكن التكهن بها على تشكيل العديد من الفصائل المسلحة، كثير منها على خلاف مع بعضها، غير أنها توحدت ضد عدو مشترك. ويثير هذا الأمر تساؤلات حقيقية بشأن ما سيحدث بعد انتهاء النزاع الأكبر.

إشراك الخبراء المحليين

أيًا ما كانت الحلول التي تُطرح، فمن الأهمية بمكان الاستماع إلى المجموعات المحلية التي تعمل بالفعل من أجل تحقيق الاستقرار في مجتمعاتها، والعمل مع هذه المجموعات. وكثيرًا ما تظهر مبادرات وحركات محلية لسد الفراغ الناتج عن غياب الخدمات الحكومية الفعالة. وفي المدن، تكون هذه المجموعات المحلية في وضع متميز يتيح لها فهم احتياجات السكان والأحياء السكنية.

في أثناء الحرب الأهلية اللبنانية، خرج أعضاء من المجتمع المدني في مظاهرات في شوارع بيروت للدفاع عن السلام والمطالبة بإيجاد حل سياسي للنزاع. ولقد حدث تطور اجتماعي أقل وضوحًا وإن كان شديد الأهمية في سورية، تمثل في ظهور المجالس المحلية للمدن- أو "التنسيقيات" كما تُعرف محليًا- التي تؤدي دورًا مدنيًا أكثر استراتيجية في ضمان تقديم الخدمات والمساعدة للمجتمعات المحلية المتضررة من جراء النزاع المسلح.

وتبدي التنسيقيات استجابة فعالة للغاية، ولها وجود في كل من المناطق التي تسيطر عليها المعارضة والمناطق التي تسيطر عليها الحكومة، حيث تعاون في تنظيم المساعدات المحلية وتيسير عملية إعادة الإعمار. وتقول بيكار: "إن هؤلاء اللاعبين الذين يؤدون أدوارًا تنظيمية، بالإضافة إلى المجموعات الأخرى ذات القواعد الشعبية، هم حتمًا مُقوّم أساسي لمستقبل هذه المدن، ويجب استشارتهم وإشراكهم في المساعدة على إعادة بناء المدن لاحقًا". وتضيف: "إن اتخاذ القرار باتباع نهج 'من أعلى إلى أسفل' وحده لن يُكتب له النجاح".

تطوير مؤسسات شاملة: إعادة بناء التعليم

كان للحروب الإقليمية الراهنة تأثير هائل وسلبي على التعليم. فمن ناحية، أحدثت الهجمات، الموجهة منها أو العشوائية، على المرافق التعليمية أضرارًا جسيمة، وأوقعت أعدادًا كبيرة من الضحايا، واستنزفت الموارد. وكان للظروف الأمنية غير المستقرة والعنف عواقب أخرى أيضًا، تمثلت في عدم الانتظام في المدارس، ونزوح الطلاب والمعلمين، وانخفاض الدخول (ما يدفع الأسر إلى إخراج الأطفال من المدارس).

إن استعادة فرص الحصول على التعليم وتوفيره، حتى في أثناء النزاع، أمر بالغ الأهمية، وغالبًا ما تشير إليه المجتمعات المحلية بوصفه أحد أولوياتها، إلى جانب الغذاء، والأمن، والرعاية الصحية. وقد تسببت الحرب الأهلية اللبنانية في "هجرة العقول" بصورة كبيرة، إذ هاجر الكثيرون من النخبة المتعلمة، حتى بعد انتهاء الحرب.[36] وهناك هجرة مماثلة من العراق مستمرة منذ عقود، كما شهدت سورية واليمن هجرات من هذا النوع في الآونة الأخيرة.

والحقيقة أن التعليم كان من بين أكبر ضحايا الحرب في سورية. وهذا مجال آخر تعرض الشباب السوري فيه لضرر بالغ، ويُعد أحد أسباب الهجرة الجماعية في أوساط الشباب. فقبل الحرب، كانت الدولة توفر تقريبًا جميع الأموال المطلوبة لدعم النظام التعليمي. تقول بيكار: "اليوم هناك جيل من الأطفال الذين لم يحصلوا على التعليم، أو حصلوا على تعليم سيئ. وهذه مسألة بالغة الأهمية للأجيال الشابة في سورية ولمستقبل البلاد، وتتطلب اهتمامًا عاجلًا".

إلى جانب ما تمثله من أهمية لمستقبل البلاد، تؤدي المرافق التعليمية دورًا حيويًا في تجميع مختلف أطياف المجتمع. وكانت الجامعة اللبنانية تجمع في أروقتها طلابًا من مختلف الديانات، والطوائف، والمناطق. يقول البروفيسير طرابلسي: "لكن الحرب غيرت ذلك. أصبحت الجامعة مُقسمة، وخُصخصت المدارس والجامعات. وقد عمّق هذا الأمر الانقسامات بدلًا من رأبها. وينبغي أن تؤدي الأنظمة التعليمية في فترة ما بعد الحرب دورًا في ضمان فرص التبادل والاحتكاك". ولهذا الأمر أهمية أكبر في المدن التي تتسم تقليديًا باختلاط سكانها وتنوعهم، وذلك بغية المضي قدمًا وتجاوز الانقسامات.

عندما ينتهي القتال، إلى أين سيذهب المقاتلون؟ على السلطات أيضًا أن تتوصل إلى حل في مسألة أخرى بالغة الأهمية، ألا وهي: ما الذي ينبغي عمله لإعادة إدماج من شاركوا في القتال؟ قد يكون الكثيرون انضموا إلى المجموعات المسلحة، على سبيل المثال، للدفاع عن أحيائهم وأسرهم. وقد يكون بعضهم فعل ذلك عندما كانوا حديثي السن، وربما نشأوا في خضم العنف. بعد انتهاء الحرب الأهلية اللبنانية، تم استيعاب عدد كبير من المقاتلين في الجيش الوطني، ولم تكن هناك سوى عملية محدودة لإعادة تأهيل المقاتلين وإعادة إدماجهم.

"لم لا أقاتل لحماية نفسي وأسرتي؟"

كما يرويها هو

إبراهيم*، الذي قاتل في الحرب الأهلية اللبنانية

"كنت في الثانية والعشرين من عمري، وأتمتع بِصحة جيدة. فلم لا أقاتل لحماية نفسي وأسرتي؟ كنا نعيش بالقرب من بيروت. وفجأة، أصبح الخطر مُحدقًا في كل اتجاه. لا يمكنك التحرك دون التفكير في أنك قد تكون ذاهبًا إلى حتفك. كان الذهاب لشراء الخبز يُعد مهمة انتحارية. ماذا عن المدارس؟ انس أمرها. كل شيء يتغير. كل شيء يتوقف، باستثناء الموت والبؤس، فالاثنان متوفران بكثرة".

"يخبرونك أن الحرب هي الجحيم. ولكن بعد ذلك ترى رفاقك وهم يموتون، وتسمع أن صديقًا آخر قد أصبح في عداد المفقودين. كيف يمكنك الاستعداد لذلك؟ لا يمكنك. أفترض أن هناك أماكن كان يجب عليّ تجنبها. ولو كنت فعلت ذلك، لم أكن لأرى الأشياء التي رأيتها".

"نحن لسنا وحوشًا، نحن بشر. وكذلك الجانب الآخر".

"قبل اندلاع الحرب، لم يكن أحد يتصور أننا فجأة سوف نقاتل بعض المجموعات الأخرى. بدأ التدريب مع اندلاع الحرب. وكلما علت رتبتك، زاد التدريب الذي تتلقاه لأنك كنت تصدر الأوامر. تلقيت التدريب. وعلمت ما كان هدفًا وما لم يكن كذلك. فالمدارس، وسيارات الإسعاف، والمستشفيات من الواضح أنها ليست أهدافًا، لذلك قلنا للجنود الأقل رتبة أن يتجنبوها أيًا ما كانت التكاليف. كما تعلم، في خضم الحرب، لا يمكنك السيطرة على كل ضابط، ولكن يمكنك أن تحاول ذلك قدر الإمكان. كان علينا أن نذكرهم بأننا لسنا وحوشًا، بل نحن بشر. وكذلك الطرف الآخر".

"بالنسبة لي، جعلت المسامحة الأمور أسهل عليّ. في أحد الأيام، استيقظت وبدأت التفكير محدثًا نفسي: 'أود أن أسامح كل من أطلق عليّ النار. لن أنسى، لا يمكنني ذلك أبدًا. ولكني سأحاول أن أسامحهم، وربما أمكنني تحطيم هذا الحاجز الذي بنيته بيننا'".

** اسم مستعار*

M. Tahtah/ICRC

تعليقات ختامية

1. بين أيار/ مايو 2015 وتموز/ يوليو 2016.
2. مثلت الوفيات المرتبطة بالنزاعات في سورية والعراق واليمن 47٪ من الإجمالي العالمي بين عامي 2010 و2015 (البيانات حتى نهاية عام 2014، ولا يدخل فيها عام 2015). وتستند هذه الإحصائية إلى بيانات مستقاة من الأمانة العامة لإعلان جنيف 2015. تقرير عبء العنف المسلح على الصعيد العالمي 2015: الجميع قيِّم. كامبريدج، طبعة جامعة كامبريدج.
3. تقرير منظمة مكافحة العنف المسلح لعام 2014 تحت عنوان Explosive States: Explosive Violence in Populated Areas، "دول متفجرة: العنف المتفجر في المناطق المأهولة بالسكان"، 22 حزيران/ يونيو 2015: https://aoav.org.uk/2015/explosive-states-explosive-violence-populated-areas-2014/
4. المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، *تقرير الاتجاهات العالمية*، 2016: http://www.unhcr.org/ar/news/latest/2016/6/57679b0ca.html، تم الدخول على جميع العناوين على شبكة الإنترنت في نيسان/ أبريل 2017.
5. وفقًا للبيانات والتقديرات في أوائل نيسان/ أبريل 2017 المستقاة من مركز رصد النزوح الداخلي http://www.internal-displacement.org/database، والمفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين http://www.refworld.org، ووكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى الأونروا https://www.unrwa.org/ar، فإن نحو 17,4 مليون شخص نازحون حاليًا داخل العراق، وسورية، واليمن أو خارجهم.
6. المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين: http://data.unhcr.org/syrianrefugees/regional.php
7. يبلغ عدد النازحين داخليًا في اليمن 2,2 مليون نازح (البيانات الأولية لمركز رصد النزوح الداخلي لعام 2016) وعدد السكان المتوقع 27,5 مليون نسمة http://data.un.org/CountryProfile.aspx?crName=yemen
8. يبلغ عدد النازحين داخليًا في العراق 3,3 ملايين نازح (البيانات الأولية لمركز رصد النزوح الداخلي لعام 2016) وعدد السكان المتوقع 37,5 مليون نسمة http://data.un.org/CountryProfile.aspx?crName=Iraq
9. جوان ليو، وبيتر ماورير: "إن الغارة الجوية على أحد مستشفيات حلب هي جرس تنبيه للأمم المتحدة. يجب عليها أن تتحرك الآن"، *صحيفة الغارديان*: https://www.theguardian.com/commentisfree/2016/apr/29/aleppo-hospital-airstrike-un-syria
10. وفق أحدث معدل للخسائر البشرية في 1 نيسان/ أبريل 2017.
11. وفقًا للمبادئ التوجيهية لمكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية بشأن التشرد الداخلي، بما في ذلك الفرع الخامس الذي يحتوي على المبادئ المتعلقة بالعودة وإعادة التوطين والاندماج، والمبادئ 28 و29 و30: https://documents-dds-ny.un.org/doc/UNDOC/GEN/G02/152/69/PDF/G0215269.pdf?OpenElement. على سبيل المثال، ينص المبدأ 28 على ما يلي: (1- يقع على عاتق السلطات المختصة، في المقام الأول، واجب ومسؤولية تهيئة الظروف وتوفير الوسائل لتمكين المشردين داخليًا من العودة الطوعية، آمنين مكرّمين، إلى ديارهم أو أماكن إقامتهم المعتادة أو التوطن الطوعي في مكان آخر من البلد. وتعمل هذه السلطات على تيسير إعادة دمج المشردين داخليًا العائدين أو المعاد توطينهم. 2- تُبذل جهود خاصة لكفالة المشاركة التامة للمشردين داخليًا في تخطيط وإدارة عودتهم وإعادة توطينهم وإدماجهم".
12. نحو 467 ألفًا وفقًا لآخر تعداد رسمي للسكان في عام 2004 https://www.citypopulation.de/Yemen.html. وتشير بعض التوقعات إلى أن هذا العدد ربما تضاعف أكثر من ثلاث مرات قبل اندلاع القتال.
13. تشير الأرقام الصادرة عن فرقة العمل المشتركة بين المنظمة الدولية للهجرة والمفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين المعنية بتحركات السكان IOM-UNHCR Task Force on Population Movement منذ كانون الثاني/ يناير 2017 إلى أن النازحين بسبب النزاع يأتون من محافظة تعز (547 ألف نازح) أكثر من أي محافظة أخرى. التقرير الثاني عشر الصادر عن فريق العمل المشتركة، كانون الثاني/ يناير 2017، ص. 12: https://drive.google.com/file/d/0B6owQSRCTIGYQUl3MHZMN01RdEU/view?usp=sharing
14. وفقًا لما أُبلغت به اللجنة الدولية للصليب الأحمر.
15. منظمة الصحة العالمية، تشرين الثاني/ نوفمبر 2016: http://www.emro.who.int/ar/media/news/survey-reveals-extent-of-damage-to-yemens-health-system.html
16. ذلك على الرغم مما يقتضيه القانون الدولي الإنساني في ما يتعلق بمعاملة الموتى. انظر: https://ihl-databases.icrc.org/customary-ihl/eng/docs/v1_cha_chapter35
17. المتحدث باسم مجلس محافظة الأنبار، 31 كانون الأول/ ديسمبر 2015: http://www.aljazeera.com/news/2015/12/iraq-80-percent-ramadi-ruins-fighting-151231114030408.html
18. بحلول 13 آذار/ مارس 2017، عاد نحو 300,500 شخص إلى قضاء الرمادي من أصل أكثر من نصف مليون شخص نزحوا في أثناء المعركة من أجل تحرير المدينة. القائمة الرئيسية للمنظمة الدولية للهجرة للنزوح في العراق: http://iraqdtm.iom.int/ReturneeML.aspx، وhttps://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%B9%D8%B1%D9%83%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%85%D8%A7%D8%AF%D9%8A_(2015%E2%80%9316)
19. مصفوفة تتبع النزوح التي تعدها المنظمة الدولية للهجرة. في تشرين الأول/ أكتوبر 2016، أشارت التقديرات إلى أن نحو 3,1 ملايين عراقي نزحوا في جميع أنحاء البلاد: http://iraqdtm.iom.int/IDPsML.aspx

20. قبل بدء هجوم القوات العراقية على غربي الموصل في 19 شباط/ فبراير 2017، كان تعداد سكان المدينة يتراوح بين 1,2 و1,5 مليون نسمة. وحسب التقديرات، لم يفر سوى 200 ألف شخص من المدينة والمناطق المجاورة بحلول منتصف كانون الثاني/ يناير، أي بعد ثلاثة أشهر من اندلاع القتال.

21. المنظمة الدولية للهجرة، مصفوفة لتتبع النزوح التي أعدتها بعثة المنظمة الدولية للهجرة في العراق: http://iraqdtm.iom.int/EmergencyTracking.aspx

22. نزح 350 ألف شخص من المدينة في الفترة بين 17 تشرين الأول/ أكتوبر 2016 و23 آذار/ مارس 2017، على الرغم من التقديرات التي تشير إلى أن 76 ألف شخص عادوا بالفعل بحلول 23 آذار/ مارس 2017: http://www.internal-displacement.org/assets/IDUs/20170330-idu-issue-13.pdf

23. استُخدم الحصار في أثناء الحروب في العديد من المدن الحديثة، من لينينغراد إلى البلقان (استمر حصار سراييفو ما يقرب من أربع سنوات). ولكن ما نراه اليوم هو تزايد استخدام الحصار من جانب مختلف أطراف النزاعات المسلحة في منطقة الشرق الأوسط. ويتخذ الحصار أشكالًا مختلفة، من الحصار الجزئي إلى الحصار الكلي، ولكنه يستمر أشهرًا أو سنوات في المرة الواحدة، وغالبًا ما يكون له عواقب وخيمة على المدنيين.

24. بما في ذلك البيانات الأولية لعام 2016 المستقاة من مركز رصد النزوح الداخلي http://www.internal-displacement.org، وأرقام المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، والأونروا التي أتيحت لهذه البلدان في 9 نيسان/ أبريل 2017. ويشمل العدد الإجمالي 400 ألف لاجئ فلسطيني مسجلين لدى الأونروا نزحوا بسبب الأزمة السورية.

25. بالتحديد: فريق الأمم المتحدة القُطري في العراق، ومعهد الأمم المتحدة للتدريب والبحث (يونيتار)، ورئيس بلدية الرمادي، ووزارة الصحة العراقية.

26. يكفل القانون الدولي الإنساني الحماية لجميع الأعيان المدنية، لا سيما تلك الأعيان التي لا غنى عنها لبقاء السكان المدنيين.

27. لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر تقرير اللجنة الدولية المُعنون: ***Bled Dry: How War in the Middle East Is Bringing the Region to the Brink of a Water Catastrophe***، *"نزيف حتى الجفاف: كيف تدفع الحرب في منطقة الشرق الأوسط المنطقة إلى حافة كارثة مائية" آذار/ مارس 2015*: https://www.icrc.org/en/document/bled-dry-how-war-middle-east-bringing-region-brink-water-catastrophe

28. للاطلاع على تحليل متعمق للموضوع، انظر تقرير اللجنة الدولية المُعنون: ***Urban Services during Protracted Armed Conflict: A Call for a Better Approach to Assisting Affected People***، *"الخدمات الحضرية في أثناء النزاعات المسلحة الممتدة: دعوة إلى نهج أفضل لمساعدة المتضررين"*، تشرين الأول/ أكتوبر 2015: https://www.icrc.org/en/document/urban-services-protracted-conflict-report

29. لمعرفة المزيد، راجع التقرير: https://www.icrc.org/en/document/explosive-weapons-populated-areas-use-effects

30. اللجنة الدولية، *القانون الدولي الإنساني وتحديات النزاعات المسلحة المعاصرة*، المؤتمر الدولي الحادي والثلاثون للصليب الأحمر والهلال الأحمر، جنيف، سويسرا، 28 تشرين الثاني/ نوفمبر- 1 كانون الأول/ ديسمبر 2011، وثيقة أعدتها اللجنة الدولية، جنيف، تشرين الأول/ أكتوبر 2011، ص 42.

31. اللجنة الدولية، "اللجنة الدولية تدين بشدة استخدام الأسلحة الكيميائية في محيط الموصل"، 3 آذار/ مارس 2017: https://www.icrc.org/ar/document/iraq-icrc-strongly-condemns-use-chemical-weapons-around-mosul

32. الجامعة الأميركية في بيروت: http://ddc.aub.edu.lb/projects/pspa/kisirwani.html

33. بينما تتجاوز أسباب ذلك إرث الحرب الأهلية، فحتى اليوم، يعيش ربع المواطنين اللبنانيين في الخارج (نحو 1,3 مليون مواطن من أصل 5,2 ملايين مواطن)، ويهاجر نصف المواطنين الشباب إلى الخارج بعد الحصول على درجاتهم الجامعية.

34. بنهاية الحرب، أشارت التقديرات إلى أن نحو نصف مليون شخص قد نزحوا داخل البلاد، ومات عدد يتراوح بين 48 ألف و250 ألف شخص. كما فر ما يتراوح بين 600 ألف و900 ألف شخص من البلاد في أثناء الحرب، على الرغم من عودة الكثيرين إما في أثناء الحرب أو بعدها. وبحلول عام 2004، أعلنت وزارة الدولة لشؤون النازحين في لبنان أن 68 ألف شخص لا يزالون نازحين داخل البلاد، على الرغم من أن تقديرات جهات أخرى أشارت إلى أن العدد يبلغ نحو عشرة أضعاف ما أُعلن عنه.

35. الدكتورة إليزابيث بيكار هي مديرة البحوث في *معهد بحوث ودراسات العالم العربي والإسلامي* في المركز الوطني للبحث العلمي في فرنسا، آكس أون بروفانس.

36. معهد اقتصاديات العمل Institute of Labor Economics، *قرار الهجرة بين الشباب في لبنان*، سلسلة أبحاث للمناقشة Discussion Paper Series IZA DP، رقم 10493: http://ftp.iza.org/dp10493.pdf

صورة، صفحة 2-3:
أطفال يلعبون في شوارع مدينة حلب القديمة، كانون الثاني/ يناير 2017.

صورة، صفحة 72-73:
أشخاص يركبون الدراجات بجوار كورنيش بيروت في الوقت الحاضر.

المهمة

اللجنة الدولية للصليب الأحمر منظمة غير متحيزة ومحايدة ومستقلة، تؤدي مهمة إنسانية بحتة تتمثل في حماية أرواح وكرامة ضحايا النزاعات المسلحة وغيرها من حالات العنف وتقديم المساعدة إليهم. وتبذل اللجنة الدولية أيضًا كل الجهود الممكنة لتفادي المعاناة عن طريق نشر أحكام القانون الإنساني والمبادئ الإنسانية العالمية وتعزيزها. أنشئت اللجنة الدولية للصليب الأحمر عام 1863، وتمخضت عنها اتفاقيات جنيف والحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر. وهي توجه وتنسق الأنشطة الدولية التي تنفذها الحركة في النزاعات المسلحة وغيرها من حالات العنف.

www.facebook.com/ICRCarabic/
www.twitter.com/icrc_ar
www.instagram.com/icrc

اللجنة الدولية للصليب الأحمر
International Committee of the Red Cross
19, avenue de la Paix
1202 Geneva, Switzerland
T +41 22 734 60 01 F +41 22 733 20 57
Email:cai_rcc@icrc.org ww.icrc.org/ar
© حقوق الطبع محفوظة للجنة الدولية للصليب الأحمر، آيار/ مايو 2017

ICRC

4312/004 05.2017 A.Lichn/ICRC :صورة الغلاف